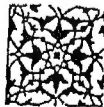




شعراء الإسكندرية في المصور الإسلامية

تأليف عبد العليم القباني
تقديم الدكتور محمد الحاجري





مقدمة



بقلم الدكتور : محمد طه الحاجري

المداخن كالناس : لكل مدينة طابعها وملامحها وقسماتها ، أو قل شخصيتها التي تنفرد بها ، كما ان لكل فرد من الناس شخصيته ، التي تميزه عن غيره وتحيطه بجو خاص به ، وكما تتكون شخصية الفرد من عوامل الوراثة والبيئة وملابس الحياة المختلفة ، كذلك الامر بالقياس الى المدينة ، وكلما كانت هذه العوامل اعرق وابعد ابغالا وأكثر تداخلا ، كان طابع شخصيتها أكثر انفرادا وأشد تميزا وبهذا نجد بين المدن - كما نرى بين الناس - مدنا أوساطا ، تقل الفروق بينها وتكثر وجوه التشابه فيها ، وأخرى بائنات بنفسها ، منفردات بما خط الزمن عليها من ملامح عميقة معقدة متشابكة ، لأنه قد اجتمع لها من الاسباب والملابس في خلال التاريخ الممتد المتطاوّل ، ما لم يجتمع للجبهة الكبرى ، ولأنه كان لها من قوة الحياة ما استطاعت ان تصمد به لاحداث الزمن وصروف الايام .

والاسكندرية من أعرق المدن تاريخا ، وأكثرها في أحداث الزمن مشاركة ، وقد كان لها من موقعها ، وما أتاحها لها هذا الموقع على مر القرون ما جنبها أن تنمّاع في غيرها ، كما جعلها من أبرز المدن شخصية ، وأقواها طابعا ، وأشدّها اثارة للباحث والمتأمل والمتطلع .

ولهذه الشخصية جوانبها الكثيرة ومظاهرها المختلفة ولكن الادب هو ولا ريب أول مظاهرها ، إذ كان أشدها اتصّالا بها وأقواها تعبيرا عنها

وتمثيلا لها ، وما شئ أدل منه ، فى حقيقة الأمر عليها ، اذ كان انما ينبع من اغوارها البعيدة متغلغلا فى سائر جوانبها •

وهذا الكتاب الذى يسعدنى أن أقدم له بهذه الكلمات يعرض جانبا من جوانب هذا المظهر ، وهو الشعر السكندرى فى العصر الاسلامى •

ولعل من حسن التوفيق ان يكون صاحب هذا البحث والمضطلع بعيبه شاعرا سكندريا مطبوعا ، والشاعرية والسكندرية صفتان أحسب أن لا بد منهما فى مثل هذه الدراسة لتمضى فى سبيلها على بصيرة ولتؤدى غايتها على هدى من الحس الدقيق والايمان الوثيق •

أما الشاعرية التى تتضمن الحس المرهف والذوق الفنى ، والقدرة على التغلغل فى بواطن الاشياء والاندماج فى حقائق الحياة والاستغراق فى العوالم النفسية ، واستشفاف الخلجات الغامضة واللمحات العابرة ، فهى فيما أحسب ، من أول ما يمكن للباحث فى هذا الموضوع من بحثه ، ويضع يده على الحقائق المستترة ، هذه الشاعرية جدير بها أن تهجىء له جو الموضوع الذى يدرسه ، وتهبه القدرة على أن يعيش مع الشعر الذى يؤرخه بوجوده ومشاعره • فهو منه فى عالم حى يناقله الحديث ، ويساجله القول ، ويشعر فيه بمعانى المودة والحب تغمر قلبه ، وتفيض على وجدانه فتجلو له كل شئ فيه •

وأما السكندرية - بما تربط بينه وبين المدينة التى يؤرخ حياتها الادبية برباط روحى وثيق ، وما تعكس من شخصيتها على شخصيته - فانها أيضا من أوثق الاسباب التى تمثل ما يقصد من أمر هذه الحياة الادبية فيها •

ان ارتباط الباحث بموضوع بحثه هو أول أسباب التوفيق فيما يعالج منه ، وهو فى مثل هذا الموضوع الفنى امر لا بد منه • ولابد - فيما نحسب - ان نقوى هذا الارتباط حتى يصل الى حد الهوى الذى يمازج النفس ويدخل الروح ، ويصرف القوى النفسية فى تتبع أطراف الموضوع وتعقب اشتاتاته •

وقد اجتمعت للاستاذ عبد العليم القباني هاتان الصفتان على أمثل صورة ، فهو شاعر مطبوع بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وشاعريته أصيلة بكل ما تتضمنه من صفات ، وهو سكندرى صميم ، عاش حياة الاسكندرية فى أصل جوانبها ومارس صور هذه الحياة ممارسة متصلة بأعماق نفسه ، وأحب هذه المدينة حبا يصل به الى حد الفتنة بها • واحيانا

الى حد العصبية التي ربما جعلته يهدر سائر المدن وغيرها ، والتي نحس
فى بعض مواطن هذا الكتاب اصداها •

ولكن هناك صفة ثالثة لابد منها ولا معدل عنها فى معالجة هذا
الموضوع من موضوعات التاريخ الادبى ، وهى الصفة العلمية التى ينبغى
أن تأخذ مكانها الى جانب الصفتين الأخرين متعادلة معهما ، مقدرة موقفها
منهما •

ذلك أن هذا الموضوع يعتمد - أول كل شئ - على استكشاف الآثار
الادبية السكندرية التى طوتها القرون ، واستجلاء ملامحها وذلك هو العمل
العلمى الاول الذى يحتاج الى قدر من الخبرة والمران والتجربة غير قليل ،
ثم بعد ذلك تتبع الاعمال العلمية من التحقيق والتصنيف وتتبع الصفات
المميزة وتعرف العلاقات التى تربط هذه الآثار بعضها ببعض ، والعلاقات
التي تصل ما بينها وبين ما حولها ، الى غير ذلك مما تفرضه طبيعة البحث
العلمى الادبى الذى ينتهى بعد ذلك كله الى إبراز الصورة الادبية التى يراد
عرضها ، وقد اجتمعت اجزاؤها وتلاءمت مقاديرها ، ودبت الحياة فيها ،
فاذا هى كائن حي يبعث الاعجاب والحب والنشوة •

وقد كنت أشفق على الاستاذ عبد العليم القباني ، حيث كان يعالج
موضوعه من هذه المرحلة ، اذ كنت أخشى ان يكون شأنه شأن كثير من
الشعراء الذين تستغرقهم شاعريتهم فلا تدع للوجهة العلمية مكانا فى
انفسهم ولا عليهم فى ذلك فالشعر وحده جدير أن يكون فضيلة قائمة
بنفسها ربما تضاءلت الى جانبها بعض الفضائل الأخرى •

ولكن الاستاذ القباني استطاع بثقافته الأدبية الواسعة وبصبره
ودأبه واصراره على المضى فى سبيله الى الغاية التى يرجوها أن يذلل
الصعاب ويقتحم العقبات ، ويبلغ من المنهج العلمى هذا المبلغ الجدير
بالتهنئة على النحو الذى نراه فى هذا الكتاب •

كما استطاع الى جانب ذلك ان يوازن بين العنصر الفنى والعنصر
العلمى ، وبذلك أتاح للقارئ هذه اللوحة التى تجمع صور الحياة الادبية
فى الاسكندرية فى عهودها الاسلامية ماعدا العهد الحديث • ومكن له بذلك
من ان يعيش فترة طيبة فى عهودها هذه ، كما قدم له طائفة من شعراء
الاسكندرية وقد نفخ الحياة فيهم • فمكن له من أن يصحبهم ويستمتع
بصحبتهم وقد أعفاه مما تجشمه من عناء الدرس ومتساعب البحث التى
طوعت له رسم هذه الصور ، وتمثل هؤلاء الشعراء فقد طواها دونه •

ولا يكاد ينتهى القارئ من متابعة الصور التى عرضها المؤلف الشاعر
ويقف محزوناً عند الصورة الاخيرة التى رسم بها الاسكندرية وقد
تضاءلت وانكمشت وفقدت كل معنى من معانى الحياة ، حتى يتطلم الى
صورة بعثها وانتفاضتها فى النهضة الحديثة • يسمح بها ماران على قلبه
من الاسى • وهى صورة رائعة جدير بالاستاذ القباني ان يجلسوها بأدق
ملاحظها وفى اجمل معارضها •

القسم الأول

ملاحق قديمة



- ١ -

انتهى الصراع بين الآشوريين والنوبيين بجلائهم جميعا عن أرض مصر
فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد ، واستقر الأمر بأيدي اثني عشر أميرا
مصريا من حكام الاقاليم .

وكانت هذه أول قيادة جماعية لو قدر للذين قاموا بها أن يكونوا من
المؤمنين بحق وطنهم عليهم ، غير أن نبوءة تحدث بها الناس فى ذلك العهد
مؤداها (أن الأمير الذى يشرب النبيذ المقدس فى قدح من البرنز فى عيد
الاله « بتاح » سيرتقى وحده عرش الفراعنة بمعونة رجال من البرنز) .

ولقد ألفت هذه النبوءة فى أذهان الحاكمين المؤتلفين ظلالة قائمة شغلت
أذهان الأمراء الى حين ، ذلك أنه من الممكن أن يستأثر فرعون واحد بهذا
السلطان دونهم لو مهدت الأقدار له الى ذلك سبيلا . .

ثم دار الزمن دورته ، وأتى على الناس حين من الدهر نسوا فيه
قصة هذه النبوءة ، لكن الذى حدث بعد ذلك كان غريبا . . فقد اجتمع
الأمراء الاثنى عشر ليحتفلوا بالعيد فى معبد « بتاح » وأعد الكاهن الكتوس
المصنوعة من الذهب ليصب فيها من نبيذ الآلهة ولكنه عندما راح يملؤها،
اكتشف أن النسيان غلبه على واحد منها ، وبذلك وجد الأمير « ابسماتيك »
نفسه بغير كأس . .

وخشى « ابسماتيك » أن تفوته بركة الآلهة فتناول خوذته وطلب من
الكاهن أن يصب فيها شرابه ، وأعجب الكاهن بسرعة خاطر الأمير وصب له
الشراب فى الخوذة البرنزية . . .

وانتبه الأمراء على صدق النبوءة القديمة ، فما هو ذا النبيذ المقدس
فى كأس من البرنز على شففى الأمير ابسماتيك .

وأقبل بعضهم على بعض يتآمرون . . واستقر رأيهم على لفى
ابسماتيك الى مستنقعات الشمال ، وكان ان اختاروا له « راقودة » ، (١)

(١) راقودة - كوم الشقافة وكرموز الان .

قرية على شاطئ البحر لتكون له مستقرا (١) ٠٠٠

غير أن سفنا تحمل قراصنة من اليونانيين ألقت مراسيها بهذه القرية
وعلى مقربة من منازل إسماتيك نزل رجالها وعلى أجسادهم دروع من
البرنز تلمع فى شعاع الشمس ٠٠٠

كان هؤلاء الرجال لصوصا • ولكن الأمير المنفى رأى فى دروعهم
البرنزية الرمز الثانى من رموز النبوة ، فاستدناهم منه وقربهم إليه •
وأكرم وفادتهم ، وقص عليهم قصته ، وعقد معهم حلفا ، ان يخلصوا له ،
وقد استطاع فيما بعد بمعونة حزبه من المصريين أن يتغلب على رفاقه وأن
يضع الأسس لبناء الاسرة السادسة والعشرين •

عرف الاغريق اذن راقودة قبل الميلاد بما يقرب من سبعة قرون ،
وكان لابد لشقاقتهم وأفكارهم أن تترك أثرا متفاعلا مع ثقافة وأفكار السكان
الأصليين بحيث يمكن القول بأن الصورة الحضارية لهذه القرية أصبحت
ذات طابع خاص تتميز به عن كثير من القرى المصرية •

- ٢ -

وامام راقودة هذه كانت جزيرة « فاروس » (٢) وأول وصف فى
التاريخ لهذه الجزيرة انطلق من قيثاره الشاعر الخالد « هوميروس » فى
النشيد الرابع من الأوديسة ، وذلك حيث يقول ٠٠٠

هناك جزيرة فى البحر الصاخب تجاه مصر

يطلق عليها الناس اسم فاروس

تبعد بقدر ما تسيره السفن السريعة فى يوم كامل

عندما تهب خلفها ربح قوية • •

هناك فى الداخل ميناء ذو مرسى بديع

(١) هناك رواية أخرى تقول انه نفى الى المستنقعات «بوتوس» البرلس الآن ، ولكننا أخذنا،
بالرواية الاولى وأيا كان صواب إحدى الروايتين فان من المعروف أن الاستيطان اليونانى
بدأ ينتشر فى عهد هذا الملك وأن راقودة كانت مرسى تجاريا معروفا لهم وأن
مستعمراتهم اتخذت من الدلتا مجالا فى ذلك العهد وكانت نفرايس التى لاتبعد كثيرا
عن الاسكندرية من أبرز هذه المستعمرات •

(٢) فاروس جزيرة أمام راقودة ومكانها الآن حى رأس التين ، وما يجاوره •

منه ينزل الرجال والسفن الرائعة الصنع الى البحر

بعد أن يكونوا قد أخذوا ممثلينهم ..

من الماء الذى لا ينفذ منه ضوء الشمس (١) .

ومن قبل كانت فاروس سكنا لاله البحر « بروتىوس » وتحدث عنه الأساطير فتقول : انه كان كريما يقيم الحفلات الساهرة فى ضوء القمر حيث تحتشد حوريات الماء فى الجزيرة لينعمن بمرح شاعرى ساحر ، وهناك أسطورة رواها « أروبيد » فى مسرحيته « هيلين » تقول ان « باريس » الفتى اختطف « هيلين » الجميلة زوجة « مينلاوس » وجاء بها الى « فاروس » فى نزهة ولكن الاله « بروتىوس » أبى أن يغمض عينيه على هذا الجموح الأرعن ، وفى الوقت نفسه أراد ألا يعرج شعور الضيف الغامر ، فودع « باريس » الى السفينة بعد أن جسد طيفا من « هيلين » وتركه يسافر معه ، واستبقى « هيلين » الحقيقية فى الجزيرة حتى عاد زوجها من حروب « طروادة » فسلمها اليه عزيزة مكرمة (٢) .

و « مينلاوس » هذا يروى لنا فى « الأوديسة » كيف قذفت به الرياح الى « فاروس » ثم ارتدت عنه وتركته فى مجاهل من حيرته ، ثم كان ان عظفت عليه « ايدوتيس » عروس البحر ، ودلته على الوسيلة التى يستخلص بها نصيحة والدها « بروتىوس » حتى تأتمر الرياح بأمره ، ولقد حاول أبوها فى أول الامر أن يتخلص منه ، فتحول الى أسد ضخم ، والى تنين مهول ، والى شجرة وارفة الظلال ، والى ماء صاف لا يمكن أن تحتويه يد ، ولكن هذا كله ذهب سدى أمام اصرار « مينلاوس » وصموده .. واخيرا تكلم « بروتىوس » فأدلى اليه بما يجب عليه أن يصنعه .. ففعل .. وعندما تنفس الفجر ذو الانامل الوردية كانت الالهة قد سخرت الرياح لمينلاوس ومن ثم انحدرت سفائنه فى طريقها الى « اسبرطة » (٣) .

واذن ففى « فاروس » تفاعلت ثقافة الوافدين اليها مع ثقافة أبنائها ، هذا بالاضافة الى ماضيها الأسطورى الجميل ، وكان من هذا التفاعل أن قامت بها حضارة تتفق الى حد ما وحضارة راقودة ..

(١) من ترجمة الأستاذ أمين سلامة للأوديسة .

(٢) خلاصة ترجمة للأستاذ على نور فى مقدمة كتاب الاسكندرية الذى صدر عن مصلحة

الاستعلامات .

(٣) لحصنا هذه الأسطورة عن الأستاذ صديق شيبوب فى كتابه « معارك الاسكندرية » .

- ٣ -

ولنقف قليلا حتى تنتهى احدى دورات الزمان فان عاصفة هوجاء هبت من بلاد « فارس » يقود أعنتها « قمبيز » الطاغية ، قد فغرت فاهها في نهم ، لتلتهم خيرات الأرض الطيبة في وادى النيل ، ثم مالبت بعد أن لوت أعناق الحاكمين أن أناخت بكلكلها على صدور المواطنين من سنة ٥٢٥ ق.م. الى ٣٣٢ ق.م. ، حتى اذا ما انحنت الرؤوس من ذلة ومشى اليأس في دروب القرى وطرق المدن ، وتطلع الناس الى الغيب يتلمسون النجدة من خلاله ، تفتحت أسماع الأرض على أبواق جيش لجب ، يقوده شاب مقدم لم يعرف الهزيمة قط .

ولقد رأت فيه « منف » منقذا لها من جور الفرس ولهذا أعلن كهنتها عام ٣٣٢ ق.م. أن « الاسكندر الأكبر » قائد هذا الجيش ، هو ابن أكبر الآلهة ، « ابن آمون » .

فتلك كانت نبوءة تحدثت بها امه اليه من قبل ثم تمشت في خياله زمنا ، يفر تحت ظلالها من أصداء مناقشات غامزة جارحة ، كانت ترتفع في بلاط أبيه « فيليب المقدوني » ثم ظلت تراوحه ، حتى استقرت على شفقتي كاهن آمون وهو يقدمها بين يديه عرفانا بالجميل .

ومن ثم تشبث الاسكندر بها الى الحد الذى دفعه الى قتل واحد من أعز أصدقائه عندما جرؤ أن يناقشه في صحة هذه النبوءة في أحد مجالس الشراب .

زار الاسكندر معبد آمون في سيوه ثم ركب سفينة وانحدر مع مياه النيل صوب البحر ثم اتجه غربا الى جزيرة فاروس التى قرأ عنها في أوديسة هوميروس ورأى راقودة أمامها يفصل بينهما الموج فأراد أن يربط بين القريتين بأرض تصلح لاقامة المدينة الجديدة التى شاء أن يجعل منها نقطة اتصال بين مصر والمدن الاغريقية عبر البحر ، وكان أن أمر بردم ما بين راقودة وفاروس (١) وأصدر الاسكندر أمره الى « دينوكراتيس » المهندس أن يخطط المدينة العظيمة التى شاء أن يخلع عليها اسمه « الاسكندرية » والتى قدر لها أن تصبح عاصمة لهذا الجزء من العالم ومركز الاشعاع لما حولها مدى ألف سنة مما يعدون .

(١) بعض المؤرخين ينكر هذا ويقول ان الذى أمر بالردم وبانشاء الهبستاد هو « سوتر » بطليموس الاول .

وخطط المهندس الكبير شوارع المدينة مستخدما فى تخطيطها الدقيق الأبيض فيما يقول الرواة ٠٠ ويقولون ان أسرابا من الحمام هبطت على الدقيق وأتت عليه ٠٠٠ ويقولون فى قصة أخرى أن الاسكندر نفسه هو الذى رسمها بالدقيق على مائدة فى الهواء الطلق فالتهمت الرسم أسراب من الحمام العابر (١) وحين تشاءم بعض الناس ، وقالوا ان هذا نذير سوء ٠٠ أول العرافون رمزية هذا الحادث بالمعرفة التى ستنتقل من ينابيع العلم فى هذه المدينة الى مختلف بقاع الأرض ٠

- ٤ -

واقامت المدينة وارتفع بنيانها وصعدت شامخة تطرق أبواب السماء ، ثم طوى الموت صحيفة الاسكندر ، وهو بعد فى عمر الزهور ، وذهبت أعماله ضبابا فى مجاهل الزمن ، ونسى الناس الآلاف المؤلفة من القتلى ، أولئك الذين ذهبوا ضحية بسالة جنوده ، ولقد أباد الزمن فيما أباد ما أقيم من نصب وتمائيل تمجيذا للقائد العظيم ولم يبق من كل هذا الملك العريض الا « الاسكندرية تلك المدينة الهادئة التى تحتضن الأزرق الفضى فى اغراء فائن بهيج ٠٠٠ »

وورث خلفاؤه من البطالمة « مصر » وانتهجوا فى الارتقاء بها وبالمدينة التى تحمل اسم رائدهم الكبير نهجا فيه كثير من الوفاء ، فاستقدموا اليها اكابر علماء عصرهم ، وخلصوا أدباء اليونان ، وكبار فنانيها ، وأنشئوا المعابد الضخمة ودار العلم المشهورة والمكتبة التى خلد ذكرها على الزمان ٠٠

وأصبحت الاسكندرية مقرا للحكم ، وفى أرجائها اختلطت أمشاج من الناس ، من المقدونيين ولهم عزة الملك وسيطرة الحاكمين ، ومن اليونانيين ولهم كذلك ثقافتهم التى أنماها فيهم أساتذة علموا الدنيا من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وسوفوكليس ، ومن المصريين ورثة ديانة رع وفلسفة امحوتب وتلاميذ كهنة منف وعين شمس ومن طوائف أخرى تركت آثارها فى تكوين الحضارة المشرقة ، وقد أصبحت الاسكندرية منذ العقد الثانى من القرن الثالث ق.م ٠ أعظم مراكز الحضارة اليونانية ٠٠

وحضارة الاسكندرية وان كانت تعد امتدادا لحضارة آثينا الا أنها كغيرها من سائر مراكز الشرق الثقافية مزجت بين حضارة الشرق والغرب،

(١) لا يهمنى هنا صدق الروايتين بقدر ما تهمنى دلالة الخبر المعنوية ٠

ثم احتلت مكان القيادة بين هذه المراكز جميعاً ، ذلك ان مركز مصر الجغرافى وازدهار اقتصادها ، وتشجيع حكامها للحركات العلمية والأدبية، جعل الاسكندرية جديرة بهذه القيادة ، بل انة بالقدر الذى كانت ترتفع به مكانة الاسكندرية ، كانت تهبط به مكانة أثينا ، وعلى أصدااء من هذه الحضارة المتألقة ، قامت حياة مترفة ناعمة ، تركت ملامحها فى كثير مما وصل الينا من فن جميل أصيل ، كما أوحى أمسياتها الساحرة العبة بعبور فائنات الليل الى كثير من كتاب أوربا فى أوائل عصرنا الحديث بموضوعات شيقة نضرب لها أمثلة بقصة « أفروديت » وغيرها .

وكذلك نجد من الاتجاهات التى وضحت عند شعراء الاسكندرية فى ذلك العهد أن الشعر أصبح فى نفسه غاية تقصد لذاتها ومنهم الذين أوجدوا بحق ذلك المبدأ القائل بأن « الفن للفن » فلم يكونوا ليستكثروا ما يبدلونه من وقت وجهد طويلين فى سبيل صقل الشعر أو فى البحث عن الأوصاف الجميلة أو فى ابتكار المحسنات البديعية الرائعة أو فى أحكام أوزان الشعر بطريقة لم يسبقوا اليها ، ولقد انتشرت هذه الاتجاهات وتجاوبت أصداؤها وكان لها تلاميذها المخلصون ، لا فى المدينة فحسب ، بل وخارجها فى مراكز الأدب المختلفة فى سوريا ومقدونيا وبرجام وغيرها ولم يكن الشعر وحده هدفا لهذه الثورة بل امتدت الى كل أنواع الفنون الأخرى . كانت هناك ثورة على القديم ونزوع الى الجديد المشبع بروح الصراحة والحرية . .

(١)

شعر الاسكندرية في العصر البطلمي



- ١ -

والآن وقد شهدنا بناء المدينة ولمسنا العوامل الاجتماعية التي تركت أثرها بلا شك في انتاجها الفنى ، فان علينا أن نعبّر الزمن لنعيش مع الآثار الفكرية للمدينة الخالدة ، ولندرك مدى مالهذه العوامل المختلفة من أثر في ايجاد شعر جديد تتمثل في بعضه النزعة الاسطورية ذات الاثر اليونانى الواضح ، ولعل أقرب الأمثلة التي بين يدي الآن والتي تعبر عن هذا الاتجاه قصيدة « سارق العسل » للشاعر « ثيوكريتوس » من القرن الثالث ق.م .

(ذات يوم تسلل « اوروس » الى خلية نحل ليسرق أقراص العسل فلدغته نحلة فى يده ٠٠٠٠ ولحقت بأصابعه اصابة بالغة .

فأخذ ينفخ فى يده ويصيح .

ثم أسرع الى أمه الالهة « أفروديت » وشكا اليها النحلة قائلا « كيف تستطيع هذه المخلوقة الصغيرة أن تلحق بى أذى كبيرا ؟ فضحكت الالهة وقالت :

« فيم العجب !؟ »

الا تسبب أنت أيضا جراحا دامية رغم ضالة جسمك » (١)

وفى قصيدة « الصياد » للشاعر « موسوخوس » الذى عاش فى أواخر القرن الثانى ق.م نلمح ظلال العاطفة المتقلبة التي تكاد تكون سمة من سمات الخلق الساحلى ، وفى الأسنطر الثلاثة الأخيرة منها نكاد نحس التنهيدة العميقة التي يطلقها السكندريون المعاصرون عندما لا يجدون مناصا من الرضوخ للأمر الواقع ، كما نشهد فيها بعامة تأثير البيئة الساحلية وانطباعات مظاهرها :

(عندما يداعب النسيم صفحة البحر الازرق
يغربنى ماؤه الهادىء فانسى جمال البر وبهجته

(١) ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة في كتاب شعر الرماة .

فاذا ما هاج واضطربت أمواجه .
 فصرعان ما أذكر اليباسة وتحلو مناظرها في عيني .
 واشتاق إليها .
 ان حياة الصياد لقاسية .
 مأواه السفن ... وعمله في البحر .
 وأمله وراء الاسماك الهائلة

- ٢ -

وكما ندد شاعر الاسكندرية الشعبي « بريم التونسي » في العصر
 الحديث بالزواج الملكي أيام « فؤاد الأول » في قصائد شعبية مشهورة (١)
 وكان جزاؤه النفي من البلاد فأننا نجد كذلك شبيها في الاسكندرية
 القديمة حيث ندد الشاعر السكندري « سوتاريس » بزواج بطليموس
 الثاني وكان جزاؤه ان غرق في البحر حيا .

وتلك سمة أخرى من سمات سكان السواحل ، وهي الجراة في
 التعبير الى حد عدم المبالاة بالعواقب ، التي تبدو قسوتها واضحة امام
 أعينهم . وكذلك اتجه كثير من شعراء الاسكندرية في ذلك العهد الى التفنى
 بجمال الطبيعة الريفية وهدوئها .

كرد فعل لما تتركه ضجة المدينة الصاخبة من تأثير في أعصابهم
 المتوترة ، بل وشارك بعضهم الفلاحين في التفنى بالواسم المحلية ومن
 القصائد التي نظمها ثيوكرانيس واحدة تقوم على الحوار نقتطف منها
 هذه الفقرة التي تصلح أن تكون نشيدا للحصاد ...

(اى ديمتير :

ياربة الفاكهة والقمح الوفير .

ساعدينا لنحصد القمح بلا مشقة ولا عناء .

(١) نذكر هنا مطلع قصيدتين لبريم التونسي في هذا الموضوع وهما :
 (أ) البامية في البستان تهز القرون وجنبها القربع الملوكى النضيف
 (ب) البنت ماشية من زمان تتمخطر والفغلة زارع في الديوان قرع اخضر

باركى المحصول واملئى البيادر .

وانتم يا شباب .

اخلصوا فى أعمالكم . . واستيقظوا مع الطير . . فى الصباح المبكر
لا تتوقفوا الا اذا حمى الحر اللافتح .

ولا تناموا الظهيرة ، بل ارقبوا ريح الشمال

ياربة الفاكهة والقمح الوفير .

باركى المحصول . . . واملئى البيادر . . (١)

- ٣ -

ومن أشهر شعراء ذلك العصر « كاليماخوس » الذى نظم كثيرا من
الشعر العلمى ومع ذلك فقد كان مجاله كبيرا فى الشعر القصصى ومن
أشهر قصصه الشعرية « هيكللى وثيوس » فى ألف بيت وتدور حول
سيدة عجوز قضى البطل « ثيوس » ليلة فى كوخها قبل أن يذهب لمنزلة
« ثور مارتون » وعاد إليها بعد أن انتصر ليقدم لها شكره ، ولكن الموت
كان اسبق إليها منه . .

وقد سخر هذا الشاعر كثيرا من شعره فى تملق الملوك ومدحهم
كقصيدته المسماة « نشيد الى زيوس » وفيها يمجّد « فيلاد لفوس »
بطليموس الثانى وكقصيدته الجميلة « خصلة من شعر بيرنيكى » التى
تدور حول خصلة من شعر زوجة بطليموس الثالث وكانت قد نذرتها
لمعبد الاله اذا ما عاد زوجها من سوريا سالما ، ولكن الخصلة اختفت
من مكانها فى المعبد فادعى فلكى القصر انها صعدت الى السماء ، ونظم
الشاعر قصيدته الرقيقة مؤكدا ان الخصلة أصبحت بالفعل مجموعة
من النجوم الزاهية . . .

واذا كان للأحياء نصيب كبير فى مدائحه ، فان الموتى كذلك . لم
يعدموا نصيبا من مرأثيه ، وتتمثل هنا بمقطوعة من مرثية نظمها فى رثاء
صديقه الشاعر « هيراكلييتس » :
« ان الدمع ليتفجر من مآقى

(١) من ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة فى كتاب شعر الرعاة .

كلما تذكرت ان الشمس كثيرا ما كانت تغيب
 ونحن لا نزال نتابع حديثنا .
 واذا كنت الآن أيها الصديق .
 قد غدوت قبضة من رماد .
 فان بلا بلك (١) باقية لن تمسها يد الموت .
 قابض أرواح الجميع . « (٢)

- ٤ -

ومن الشعراء الجديرين بالذكر في هذا العصر «أبولونيوس» صاحب
 ملحمة « بحارة السفينة ارجو » المنظومة في ٥٨٣٥ بيتا (٣) والتي تمتاز
 بقوة التحليل النفسى وبراعة تصويره حب « ميديا » « لجاسون » بطل
 هذه الملحمة التى تدور حول ذهابه لأبيها الطاغية « آيتيس » فى طلب
 الجزة الذهبية وكان الملك قد جعل من هزيمة إثيرانه المخيفة ثمناً لها .
 ولقد وقعت ميديا - ابنة الملك - فى شرك حبه ، ودفعها هذا الحب الى
 أن تعطيه العقار السحري الذى يمكنه من النصر وفى المقطوعة الثانية
 نرى كيف أبدع « أبولونيوس » فى تصوير الصراع الهائل الذى دار فى
 أعماق « ميديا » وهى ترى « جاسون » ذاهبا الى معركة القاسية مع
 الثيران ..

(كانت العذراء تختلس النظر اليه
 حيث ألقت خمارها جانبا
 ان قلبها ليحترق من الوجد
 وروحها مدنفه كالعلم تتبعه أينما ذهب

(١) اشارة الى قصائد الشاعر المتوفى .

(٢) ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى فى الحولية الخامسة لأدب عين خمس
 سنة ١٩٥٩ .

(٣) يقول وول ديوارنت فى كنان قصة الحضارة أن فرجيل فى أنيادته نسج على منوال
 هذه الملحمة فى شكلها وفى مادتها أحيانا وأنه حكاهما سطرا سطرا (الترجمة
 العربية الجزء الثالث من المجلد الثانى) .

ثم خرجت وروحها أسيرة الهموم
 فلا يزال المنظر ماثلا أمام ناظرها
 أى إنسان كان ؟!
 أى رداء كان يرتدى ؟! أى حديث خاضه ؟!
 كيف كان يجلس على مقعده ؟!
 وكيف اتجه نحو الباب !!
 وكلما تستأثر بها الذكرى تخال أن رجلا مثله لم تجد به
 الدنيا أن صوته وكلماته المعسولة لترن في أذنيها
 لقد ملأ الرعب قلبها مخافة أن تصرعه الثيران
 وفي غمرة شجنها ..
 تجرى دموع كبيرة على خدها ... اشفاقا عليه
 وبينما هى تبكى ، اذا بها بصوت عال ... تقول
 « لم يغلبنى الالم ؟ أنا الشقية ...
 ماذا يعينى ان كان أبرز الأبطال أو أحطهم سيلقى حتفه ؟
 الى حيث القت ..
 ومع ذلك فكم أتمنى أن ينجو .. ولا يضار
 ليت هذا يحدث
 ليتها الربة المقدسة .. هيكاتى ابنة بيرسيس
 ليته يهرب من الموت ...
 ويعود الى وطنه ... (١) .

- ٥ -

- ولقد أقبل الشعراء السكندريون على (الابجراما) أقبالا عظيما
 وبلغوا فيها حد الكمال ، ودخلوا بها قصور العظماء ، وبيوت الفقراء ،
 ورفهوا بها عن العلماء المكوددين ، كما كانت كأسا تدار مع أقدام الراح
 على المحتسين ، وهجاء لأدعا لا يسلم منه حتى الارباب .

(١) تفضل باختيارها وترجمتها الدكتور محمد محمود السلامونى الاستاذ بجامعة مين
 شمس

و « الابجراما » مقطوعات قصيرة أهم خصائصها التركيز والوضوح
 واصابة الغرض وكانت تكتب أولا على شواهد القبور ، ثم اتسعت بعد
 ذلك لكل الأغراض وقد استطاع « ميليا جروس (١) » أن ينفذ الى
 اعماقنا وهو يرسل هذه الابيات فى بساطة متناهية رائيا الطفل
 « ايسيجنيس » فى احدى اجراماته ..

(سلاما ايتها الارض يأم الجميع

لم يكن ايسيجنيس حملا ثقيلًا عليك

ليتك تضمين الآن رفاته

غير ثقيلة عليه ... (٢)

ولكن « ليونيداس » استطاع ان يضحكننا فى احدى اجراماته على
 السيدة « مارونيس » التى رثاها فى سخريه بقوله
 (ترقد هنا « مارونيس العجوز المحبة للنبيذ ، والمدمنة

للشراب .. انها تنوح تحت الثرى

لا على اولادها .. ولا على زوجها ..

على أن القدح أصبح فارغا) .

والاجرامات التالية واحدة من اجرامات الشراب وهى للشاعر
 « هيدليس » احد شعراء الاسكندرية الاوائل :

(فلنحتس الراح ... فسأجد وأيم الحق .. أجل وأيم الحق
 فى رحاب بنت العنب ... جديدا ... مثيرا ... حلوا تجود به قريحتى

أغرقتى اذن فى قوارير النبيذ الخيوى وقل ...

انظم أشعارك المرحه يا «هيدليس» .

انى اكره أن أقضى حياتى عبثا

أعنى .. غير ثمل .. (٣)

(١) ميليا جروس شاعر سوري من مدرسة الاسكندرية .

(٢) من ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى فى الحولية الخامسة لأداب عين شمس ١٩٥٩

(٣) ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى واختياره .

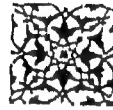
-٦-

على أن هناك ظاهرة غريبة جدية بالتسجيل وهى انى لم أقع فيما وقفت عليه من مراجع ، على شاعر واحد فى ذلك العصر من أصل مصرى خالص ، انما كانوا جميعا ، أما من الاجانب الوافدين الى الاسكندرية او من السكندريين الذين ينتمون الى سلالات اجنبية وانهم جميعا كانوا لا يكتبون بغير اليونانية ...

وربما رجع هذا الى ان الامية كانت تسود الغالبية العظمى من الوطنيين أو ربما كان الشعراء المصريون ينظمون بلغتهم الشعبية التى لم تكن العناية بها - فيما يبدو - كافية للحفاظ اشعارها ، اذ كان تدوين الآداب من مهمة الخاصة الذين ينتمون بالصلة أو التودد الى الهيئات الحاكمة ذات اللسان الغريب والعواطف المفارقة ، هذا الى بواذر اضمحلال اللغة المصرية نفسها فى هذه الفترة تحت تأثير الضغط الثقافى الاغريقى والقوى الادبية والمادية المساندة له ، والتجاء كثير من الناس الى من يكتبون بالاغريقية فى أعمالهم التجارية وفى مراسلاتهم حتى الشخصى منها ، على أن هذا لا يمنع ان يكون هناك شعر شعبى قد دون على بعض آثار هذه الآونة ولم يصل اليه المعنيون بهذا الأمر بعد ، كما يمكن القول باحتمال وجود شعراء مصريين نظموا شعرهم باللغة اليونانية نفسها ولكنه لم ينل حظه من القوة أو من السبيل الى الظهور .

(پ)

شعر الاسكندرية تحت مطرقتى روما وبيزنطة



- ١ -

اسدل الستار على الفصل الأخير من مسرحية البطالة فوق وادي النيل وآثرت « كليوبترا » آخر ملكة على عرش الاسكندرية أن تموت بيديها لا بأيدي الرومان وبعد حياة مرت حاملة كتسمات الصيف ، عاصفة كأعاصير الشتاء وانطلق الشعراء الرومانيون ينشدون أغنيات جارحة ، تنتفض بها الأهوال وينكفئ منها ضمير الانسانية ليملى على الزمن تلك الكلمة الحققة « ويل للمغلوب » ولعل أعف ما نظمته هؤلاء الشعراء قصيدة « هورانيوس » التي يتحدث فيها عن مصرع ملكة مصر فنستشف من حديثه مدى الخطورة التي كانت تحس بها روما أزاء « كليوبترا » سيدة وادي النيل ، ذلك حيث يقول :

(لقد كانت ملكة هوجاء ..

تدبر الخراب للكابيتول ، والدمار للامبراطورية .

غير انها وقد سعت الى أن تموت ميتة نبيلة .

لم تهلع من نصل السيف مثل ما تهلع النساء .

ولم تسع باسطولها السريع الى شيطان خفية .

بل انها اجترات على أن ترمق قصرها المتهاوى .

بعين ملؤها الهدوء .

وانها لمقدمة أيضا ..

اذ أمسكت بالافاعي الشرسة .

لكي يمتص جسمها السم الزعاف .

وقد زادها الاصرار على الموت جراه .

فاستنكفت أن تحمل ، وهي متجردة من إبهة الملك .

على سفن القساة .

أو أن تساق في ركب النصر الظافر .

انها امرأة ذات أباء (١)

وكذلك قدر للمدينة أن تشهد مصرع القائد العاشق « انطونيوس »
بعد اندحاره أمام مواطنه العنيد « أوكتافيوس » ، وان تثن تحت أقدام
الغزاة من الرومانيين ، أولئك الذين طربوا للنصر فانطلقت حناجرهم
تفريدا بالفرحة الفامرة ، بعد أن كتبت لهم الافعى سلامة الامبراطورية
من عدوتها اللدود :

(الآن ينبغى أن نُشرب

وتدق الأرض بأقدام طليقة .

ونعد أرائك الالهة ... لأفخر المآذب ..) (٢)

- ٢ -

والرومانيون كما يقول أحد النقاد « قوم غزوا الدنيا وأعينهم في
الأرض في حين كان اليونانيون يغرونها وأعينهم في السماء يعلل بذلك أن
الرومانيين لم يهتموا كثيرا في مستعمراتهم باحياء الفنون والآداب إذ
كانت جهودهم تكاد تكون مقصورة على ضفاف « التبر » وما يحيط به
حيث ألقى الخلود بسمعه الى طائفة من الشعراء العباقرة عاشوا حينما
من الدهر نجوما في سماء الأدب اللاتيني ...

ونحن هنا لن نبحث في الحياة العلمية والفكرية الا في نطاق الشعر
فلن نتعرض للفلاسفة والعلماء اللاهوتيين من الذين ازدان بهم تاريخ
الفكر السكندري ، وحق للاسكندرية أن تفاخر بنبوغهم حواضر العالم في
هذه الفترة من الزمن ، بل سنقصر جهدنا في تثبيت أقدامنا على هذا
الطريق الذى اخترناه ، وحددنا اتجاهنا فيه ، فإذا ما تلمسنا مواقع
خطواتنا على هذا الدرب الفامض ، أصبح من الهين علينا أن نتبين معالم
الطريق ، والحق أننا بعد أن أمضينا فترة مضيئة في البحث لم نجد
بالاسكندرية شعراء في ذلك العهد لهم من المكانة كالتى كانت لأسلافهم في
العهد البطلمى ...

(١) ترجمة الدكتور عبد اللطيف أحمد في كتابه « مصر والامبراطورية الرومانية »

(٢) المرجع السابق ونفس الشاعر .

وانما نجد في الغالب شعراء عاشوا ظلالة باهته لصراع دامى الرؤى
في مجتمع قائم ، كما نجد أن بعض أشعارهم مشيت تسائر الدين ، تمهد
له ، وتنظم بعض صوره في غير ما شاعرية مجنحة يمكن أن تحلق بنا
بعيدا عن تراب المدينة (١) .

فاذا استمعنا الى القليل من الاغنيات التي تمثل الاتجاهات الأخرى
من النوازع الانسانية وجدناها وقد وضعت في اطار باهت لا يتفق مع
ماللاسكندرية من مجد شعري متألق وربما اعترضتنا أسماء شعراء لهم
صلة حقيقية بالشعر ولكن هؤلاء يعتبرون في الواقع امتدادا للعصر
البطلاني ، ولهذا فاننا لا نكاد نسمع عن اسم شاعر جديد شق طريقه
الى الخلود بعد المائة الاولى من الفتح الروماني :

هذا الى جانب مجموعة أخرى كتبت باللغة الوطنية التي بدأت
تتحرك في ذلك العهد لتعلن عن نفسها ولكنها سرعان ما توارت وراء
الجدران فلم يقدر لها أن ترى الشمس ...

الحق اننا نخرج من هذا كله وبعد أن يضمننا الجهد بحقيقة مرة
مؤداها أن معظم منظومات الاسكندرية في ذلك العهد ، قد استحوطت الى
هياكل جافة لا روح فيها ، فاذا ترددت نسمات حياة في قليل منها ،
فذلك لان الله قادر على أن يحيى الموتى ...

- ٣ -

كانت الاسكندرية يومئذ خليطا من المصريين واليونانيين واليهود
بجانب قلة من الطوائف الأخرى ، فعمل الرومان على إثارة أسباب الشقاق
والفرقة بين هذه الجماعات ، وكان أن عاش سكان المدينة في صراع دائم
تلونه الدماء في كثير من الاحيان ، وعلى ذلك ضمنت روما سيطرتها عليهم
اذ لا توجد هناك قوات متجانسة يمكن أن تؤلف خطرا حقيقيا يستطيع
أن يناوئها ، فالوظائف العامة - فيما عدا القيادية منها - أصبحت وكأنها
حق مكتسب لليونانيين ، وهؤلاء لا يمكن اتحادهم مع الوطنيين الذين ظلوا
ينظرون اليهم بعين الكراهية الموروثة والحقد الدفين ، ذلك لأن الوطنيين

(١) لجأ «أرتوس» الى استخدام النظم كوسيلة من وسائل عرض فكره اللاهوتية ، كما
نظم «ديدموس» الضرب بعض أوشيات الانجيل فاستمدت منظوماته القداسة من
موضوعها وأنا لا أعنيها في هذه الفقرة .

كانوا يعتبرون الأغارقة دخلاء ، ظفروا بكل شيء ، وحرموهم من كل شيء ثم هم يرونهم بعد أن انتهى حكم البطالمة — الاسرة التي كانت ترعاهم — قد ازدادوا فأصبحوا عين المستعمر الجديد التي يرى بها وسمعه الذي يسمع به ...

هذا ولم يسمح الرومان بطبيعة الحال بقيام جيش وطنى قوى مشكوك سلفا في ولائه لهم ...

ولقد سهلت هذه العوامل من مأمورية الجيش الرومانى الذى كان يرابط في « نيكوبوليس » على بعد بضعة أميال شرقى المدينة . ومن ثم استكان الناس فلم يثوروا على الظلم الا في فترات متقطعة لم تقو على أن تجتث جذوره ، واستحالت مصر كلها الى مخازن غلال للامبراطورية .

والحق ان الرومان لم يفرضوا لغتهم على الناس بل تركوا لكل من اراد الحرية في أن يكتب باللغة التي يرغب التعبير بها . فلم تكن اللغة اللاتينية لغة رسمية للإدارة المحلية وإنما كانت قاصرة على الجيش ولقد نتج عن ذلك عدم رعاية الدولة لهذه اللغات جميعا مما أدى الى هوان قيمة الأعمال الأدبية المكتوبة بها ، وقد اتجه الشعراء بعد ان افتقدوا المؤثرات التي يمكن أن تؤثر في كيانهم الأدبى الى نظم العلوم والمعارف في منظومات ليسهل على الناشئة حفظها وتلك ظاهرة نلمحها دائما في عصور الانحطاط الأدبى ، عرفناها في العصر المملوكى وعرفتها البلاد العربية في ظل العثمانيين حينما طالعنا هذه العهود بمتون منظومة للنحو والمنطق والقراءات والفلك والعلوم الأخرى ...

على أن الاسكندرية فقدت بعد ذلك البقية الباقية من حريتها حتى احصيت على الناس حركاتهم وأغلقت معاهد العلم في فترات متلاحقة وسبق الشبان في كثير من الحالات الى القتل الجماعى كذلك الذى حدث يوم ان حلت بها نقمة « كراكلا » الامبراطور الموتور (٢١١ - ٢١٧ م) .

(٤)

ولقد وجدت المسيحية في ذلك العهد منفذا الى قلوب الناس ، بعد أن مهدت المحن لها الطريق ، وأصبح الناس في حاجة الى العزاء ، ينشدونه في ملكوت السموات ، بعد أن فقدت الأرض من قدرتها على أن تمنحهم آياه وربما ساعد على انتشارها بينهم ، ما تشابه منها مع

ديانة آبائهم من مثل الثواب والعقاب في الحياة الآخرة . وخلود الروح ،
ولما هناك من تشابه أيضا بين « حورس » الطفل و « إيزيس » الأم وبين
« المسيح » و « مريم » عليهما السلام ، بل وبعد أن أصبح الاغريقى المنتصر
« سيرايس » ظلّا ثقيلًا لا تسنده القوة التى فرضته من قبل ...

وأحست الوثنية بهذا الخطر الزاحف يتهدد كيائها ، فيما تلمحه من
وفاء أصحاب هذا الدين الجديد لدينهم فنظم مؤلف كتاب « هرمس
الأكبر » فيما ترويه السيدة ل . بوتشر (١) مرثية يتحدث فيها عن
الوافدين من الشمال ويتنبأ في حسرة بانتصار هذا الدين الغريب ولعله
كان يبغى إثارة روح الحفاظ في الشعب ليناضل عن دينه القديم .

(فواحسرتاه عليك يا مصر

اذ سوف لا يبقى فيك سوى ظل ديانتك فلا يؤمن بها الاعقاب
وسوف لا يدل عليك سوى تلك النقوش المحفورة على أعمدة مبانيك
الشاهقة التى تشيد بأعمالك الباهرة .

ان قومك سيأتونك

من الحيشيين ، أو من أية قبيلة متوحشة أخرى .
وسوف يفادرك الله الى السماء .

وسيهجر الله والانسان أرض مصر (٢) .

ويعود الشاعر فيتكهن بالمعارك التى ستدور بين أصحاب الدين
القديم وهؤلاء الجدد فيقول ...

(اسمع ما أقوله لك أيها النهر المقدس .

ستمثلى مياهاك وينابيعك المقدسة بالدماء

سيصير عدد الأموات الذين ستبتلعهم أكثر من عدد الأحياء

والذى سيبقى حيا لن يعرف انه مصرى الا بلفته فقط .

وأما أعماله .. فستكون كأعمال المتوحشين (٣ ، ٤) .

(١) ص ٦٠ ج أ تاريخ الامة القبطية (مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٤٥٢١ د) .

(٢) المصدر السابق .

(٣ ، ٤) ربما راع الشاعر تشبها الدعاء الأولين للمسيحية واحمالهم مظاهر الزينة والنظافة
التي عنى بها المصريون من قبل

ولكن الناس كانوا قد انطلقوا يؤمنون بالدين الجديد ، وكان على الوثنية أن تمسك بتلابيب الجموع التي بدأ ينتزعها هذا الدين ، فاتجهت مدرسة الاسكندرية وعلى رأسها « افلوطين » إلى القول « بأن الالهام هو الذى يكشف حقائق الاشياء وليس المنطق » ، وان هناك أشياء أسمى من الفكر في ادراك الحقيقة هي البصيرة ، أو هو الكشف ، وأنه يمكن الاتحاد مع الله ، والاندماج في ذاته بواسطة التقشف والزهد « وهو اتجاه يقرب الى حد ما مع الاتجاه المسيحى .

ولعل الصمود الذى اتصف به المسيحيون في مواجهة العاطفة ، هو الذى حدا بخصومهم الى الاستعانة بنفس المؤثرات الروحية التى يستعينون بها ، فانه لا يمكن للمنطق المجرد أمام الايمان ، كما أنه لا يمكن للمنطق أمام القوة ، غير أن هذا الصراع العنيف دار مع الزمن وانتهى به المطاف الى مأساة ذلك اليوم . . أن اطلت رعوس المؤمنين من أقيمتها لتعلن في أصرار عن ايمانها فاصطدمت بالطغاة وعلى قممهم « دقلديانوس » ٢٨٤ م .

ان أقسى أنواع العذاب ما أعجزك أن تصرخ ، حسبك عندئذ أن تن ، أما أن تنظم الانين شعرا ، فان ذلك يكون ترفا لم تنعم الاسكندرية به في عصر الشهداء ، وهى فترة من الزمن ، سميت بهذا الاسم لكثرة ما أهرق فيها من دم زكى طهور .

(٥)

ثم دار الزمن دورة أخرى ، ووجدت المسيحية المضطهدة طريقها الى الاستعلاء والظهور ، وما ان بدأ القرن الخامس حتى كانت الكنيسة القبطية لها مكانتها ثراء ونفوذاً ، فكانت لها السفن التجارية التى تعمل لحسابها ، والضياح ذات الغلال الوفيرة ، وأصبح من حق أساقفة الاقاليم الحكم فى جميع القضايا التى يكون المدعى عليه فيها أحد رجال الكنيسة بل كان للأساقفة أيضا حق الاشراف على الادارة الحكومية فى أبرشياتهم ، فضلا عن ضرورة الحصول على موافقتهم عند تعيين الموظفين .

ومع ذلك فان المدينة المرتحلة لم تجد ظلا من سلام ، ولم يكن بها عاصم من تسامح نبيل ، ولقد التقت الاسكندرية يومئذ وجهها لوجه بالحقيقة المرة التى تقول (ان الذى يقول آمن بما آمنت به والا دخلت

النار ، لا يلبث اذا ما اوتى القوة ، أن يقول لك آمن بما آمنت به والا قطعت عنقك .)

وكان ذلك اليوم أن دمر المسيحيون معبد « السرابيوم » ٤١٢ م واثارت المعارك في شوارع المدينة بين المسيحيين والوثنيين ، وتبدو مأساة الفيلسوفة الرياضية البارة الجمال « هباتيا » في قمة الأدلة على مجافاة روح هذا العصر للمسيحية السمحة ذلك عندما قتل المتعصبون من المسيحيين « هباتيا » ٤١٥ م وهي تدافع عن عقيدتها ومثلوا بجثتها أبشع تمثيل ، في طرقات الاسكندرية المزدهمة بالاعين المتطفلة لرؤية الجمال الذبيح ..

- ٦ -

كان ذلك والوثنية في الرمق الأخير ، ومع ذلك فان المدينة لم تستقر حتى بعد ان لفظت الوثنية آخر أنفاسها ، بل ابتلى المؤمنون بمذهب ديني جديد آمن به البيزنطيون وأقروه رسميا في مجمع « خلقدونية » ٤٥١ م ولا يهنا وجوه الخلاف بين المذهبين ولا أيهما كان الحق معه ، وانما الذي يهنا هو أن المستعمرين حاولوا فرض مذهبهم بالقوة وأن الهوة ازدادت اتساعا وان النار اشتد أوارها بما ألقى فيها من وقود ..

ولقد فرت جماعات من المسيحيين بدينها الى الصحراء حيث حياة تسودها الاشتراكية والشعور المطمئن نسبيا ، وحيث احتفظت المسيحية المصرية في هذه الأديرة بالكثير من تراثها الأخلاقي والديني والعلمي بل وازدهر بداخلها الكثير من ألوان هذا التراث أما المدينة فيكفينا أن ننقل هذه الاسطر التاريخية التي أوردتها « بطر » والتي تصف كيف مات « مينا » وهي قاعدة يمكن تطبيقها على آلاف شهداء ذلك العصر مع اختلاف في التفاصيل ...

« وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل نيرانها على جسمه حتى سال الدهن من جنبه على الأرض ، واستمر الرجل صامدا ، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس أثقل بالرمل ثم ذهبوا به الى البحر حتى اذا اقتربوا منه عرضوا عليه الحياة اذا هو آمن بما أقره مجمع خلقدونية ...

فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة ٠٠٠ فرموا به فى البحر
فمات غرقا « (١) » .

هكذا كانت حياة المؤمنين فى الاسكندرية تحت مطارق الحكم
البيزنطى فكيف يمكن أن يزدهر الشعر فى ذلك الجو الخائى القاتل ؟
وكيف يمكن للشعراء ان يعزفوا على قيثارتهم أغنيات الحب والجمال،
فى حين صراخ الانسانية ينصب فى أسماعهم ويأخذ عليهم كل سبيل ٠٠
لقد كان الليل ثقيلًا الى الحد الذى لا يستطيع فيه الانسان أن
يتنهد وما أن رأى سكان وادى النيل جيش عمرو بن العاص ٦٤١م حتى
استقبلوه بترحاب كبير وأشرق على المدينة صباح عهد جديد .

(١) فتح العرب لمصر تأليف بطريرك وترجمة الأستاذ ابو حديد .

(ج)

شعر الاسكندرية من الفتح العربى
الى بداية العهد الفاطمى



- ١ -

نفذ السكندريون عن أعناقهم نير الولاء للامبراطورية المنهارة ،
وانتهت مقاومة الحامية البيزنطية بعهد قطعه المسلمون على انفسهم لعل
اللع ما فيه من نقاط ما تمثله هذه الأسطر المشرقة .

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم
وملتهم وأموالهم وكنائسهم وبرهم وبحرهم . . . لا يدخل عليهم شيء ،
وعليهم ما جنى لصوصهم ، وأن نقص نهرهم عن غايته ، رفع عنهم بقدر
ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم فله مثل مالهم ، ومن أبى منهم ،
واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه » . وبهذا ورث العرب مصر
وبالتالى الاسكندرية بكل ما فيها من مجد تليد ، وآثار باقية ، وطرق
منورة ، ومساكن طيبة ، الأمر الذى أغرى عمرو بن العاص أن يسكنها ،
فكتب في ذلك الى عمر بن الخطاب يستأذنه ، وكان عمرو قد وصف
البحر للخليفة من قبل بقوله « انى رأيت خلقا كبيرا . . ان سكن فرق
القلوب . . وان تحرك ازاغ العقول . . يرداد فيه اليقين قلة . . والشك
كثرة » . ولعل هذا هو السبب فى أن عمر بن الخطاب أبى على عمرو بن
العاص أن يحقق رغبته بأن يتخذ منها سكنا وكتب اليه « انى لا أحب
أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء فيه بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف »
. . فتحول عمرو الى القسطاط ، وبالتالى بدأت الاسكندرية تتنحي
عن مكانتها الموروثة للعاصمة الجديدة .

والواقع أن عمر بن الخطاب كان بعيد النظر فى عدوله عن اتخاذ
الاسكندرية ذات الطابع الساحلى فى عاداتها وميولها ، والمفرقة فى
مسيحياتها عاصمة لمصر الاسلامية . . ولم يكن من مصلحة العرب ، اتخاذ
عاصمة بحرية للكهم الجديد ، وهم الذين لم يتمرسوا البحر ، ولم
يعقد بينه وبينهم رباط من مودة والفة ، هذا الى تطرق موقعها فى دلتا
النيل وبعدها عن بقية بلاد القطر بحيث لا تصلح - من وجهة النظر
العربية - أن تكون نقطة ارتكاز تدار منها الدولة . . ولم تكن الاسكندرية
بعد هذا سلاما خالصا ، بل تلقى من الروم بعض الهجمات التى استطاع
العرب ردها ، ومن ثم عنوا بتحسينها وإقامة دار للصناعات البحرية

فيها ، مالبثت أن اخرجت هذا الاسطول الذى رد الروم فى معركة ذات الصوارى . وهى أول معركة بحرية كبرى انتصر فيها العرب على الروم .

- ٢ -

ولقد شغل الحكام العرب بعد مضى وقت قصير من الفتح بالقضاء على بعض الثورات المحلية التى نشبت بين سكان البلاد من جهة ، وبين قوات الحكومة من جهة أخرى ، وقد استمرت هذه الثورات فيما بعد بشكل منقطع بل واشترك فى بعضها السكان من العرب أنفسهم ، وبخاصة بعد أن أصبحوا ملاكا ، وبعد أن رفعت أسماء مستثمري الأرض منهم من عداد الجنود ، واضطرت الدولة الى فرض الخراج على الجميع

كذلك شغلتهم الخلافات الحزبية التى قامت بين العلويين والامويين وبين الامويين والعباسيين أنفسهم على التوالى ، اذ كان للقبائل العربية هواها مع أطراف هذه الخلافات .

ولا شك أن شعرا باللغة الشعبية قد قيل فى ذلك العهد ، سواء اكان منظوما باندفاعات عاطفية فردية أو تعبيرا عن شعور جماعى ، ولكنى لم استطع الوقوف عليه ربما لجهلى بهذه اللغة ، أو لأن أصحابها لم يعنوا بترجمة هذه الأشعار ونشرها أو لعوامل أخرى طبيعية أقسدت أوراق البردى المخطوطة عليها هذه الآثار .

غير أن القليل الذى وصل إلينا يدل دلالة واضحة على أن ثمة نهضة أدبية قامت بين الأقباط فى منتصف القرن السابع الميلادى واستمرت حتى نهاية القرن الثامن ثم لم تستطع هذه النهضة أن تسير التيار الثقافى العربى الذى بدأ ينشر ظله على البلاد ولا أن تصمد أمامه . .

ولعل من أسباب هذه الصحوه الشعور النسبى بالحرية فى ظل الحكام الجدد يضاف الى هذا انتشار صناعة الورق ووفرتة ثم تخفيف الواجبات الدينية والعملية على الرهبان والسماح لهم بالقرارات الدينية، ولعل أجمل أثر أدبى من آثار هذه الفترة استطعت الوقوف عليه هو ما تمثله قصيدة « ارخيلدس وسنكلتيكى » وهى قصيدة شعرية فى حوار ، ويمكن ايجاز ما تبقى منها فى هذه المشاهد التى سننقلها هنا

والتي نعهد لها بموجز القصة التي تدور القصيدة حولها وهى مستمدة فى أصولها من قصة شعبية سابقة .

- ٣ -

كان « أرخيلدس » ابنا وحيدا لأمه « سنكلتيكى » التي أرسلته بعد وفاة أبيه فى رحلة بحرية يرفه بها عن نفسه ولكن السفينة التي أبحر عليها غرقت ولم ينج من ركابها سواه . . وألقت الأمواج « بأخيلدس » فوق الشاطئ حيث وجد إحدى الجثث التي طرحها البحر ، وأثر فيه مشهد الموت ، فقرر أن يترهب فى دير للراهب « أنبا رومانوس » حيث عاهد المسيح ألا يرى وجه امرأة قط ، ووصلت أنباء السفينة التي غرقت الى الأم التي أيقنت انها فقدت وليدها الى الأبد ، وحاولت الأم الخروج من دوامة الحزن فأقامت فندقا للغرباء . .

واشتهر القديس « أرخيلدس » بالتقوى والصلاح ، ولقد تحدث بعض الرواد فى ردهة الفندق الذى أقامته أمه عن القديس الجديد ، وكيف أنه أوتى القدرة الالهية على شفاء المرضى ، وبلغ حديثهم مسامع الأم التي تلمست فى أحاديثهم أنسابا من مستقر ابنها الحبيب ، وقررت الأم أن تزور وليدها ، حتى بعد أن عرفت العهد الذى قطعه على نفسه ، ألا يرى وجه امرأة قط ، فما دار بخلدتها ان يطبق الابن هذا العهد على أمه ، وأن يعتبرها كسائر النساء . .

ووصلت الى الدير ويعلم « أرخيلدس » بوجودها ، فيدعو الله أن يتوفاه بالموت حتى تستطيع أمه أن تراه ولا يحث هو بعده . .

ويموت « أرخيلدس » ويسمح رئيس الدير لوالدته أن تراه واذ يفجئها موت وحيدها فانها تدعو الله أن يلحقها به ، ويستجيب الله لدعائها . . . فتصوت وتدفن معه .

- ٤ -

هذه هى القصة التي نسجت القصيدة من خيوطها ، ولم أستطع معرفة شاعرها فان الذين نقلوها اليها ، لم يعنهم اسم الشاعر الذى نظمها، والحق أننا حين ننسبها الى الاسكندرية لانستطيع أن نقول ، أننا نلتزم الدقة التامة التي تلزم المؤرخ ، فلا تزال تنقصنا الأدلة التي تقطع

بسكندريتها أما الاعتبارات التي دفعتنا الى ترجيح هذه النسبة فاهمها ان الاسكندرية هي اكبر البلاد التي تتركز فيها ينايع ثقافة ذلك العهد ، كما ان القصيدة بعض معالم البيئة المحلية وانطباعاتها من مثل اقامة فنادق للفرباء والسفينة التي تحطمت بركابها والبحر الذي اجتازته الأم في سبيل الوصول الى ابنها ، وهي أدلة لا تفي تماما بحاجة الباحث عن الحقيقة ، ولقد ترددت كثيرا في الاستشهاد بهذه القصيدة لولا اننى أشعر انه من الواجب أن يقوم كل من يتصدى لتاريخ حياتنا الأدبية بمحاولة ما في سبيل ملء هذا الفراغ الذي يبدو واضحا في تاريخ هذه الفترة من الزمن لا بالنسبة الى الاسكندرية وانما بالنسبة الى وادى النيل بأسره ، وهي فترة توافرت قوى مختلفة على نسيانها ، وأود قبل أن أبدأ في عرض هذه القصيدة أن أنقل كلمة للأستاذ الدكتور مراد كامل، يلقي فيها الضوء على بعض خصائص الشعر القبطي ، وكيفية بنائه وطريقة القائه ، حتى يمكننا الامام البسيط بالصورة التي كان عليها فن الكلمة المنظومة أيامئذ ، ذلك حيث يقول (أن الاشعار القبطية في هذا العصر كانت تصاغ في أسلوب وطني بحت فلم تنتهج نهج الاشعار الاغريقية ، كما ان الأبيات لم تكن مقفاه ولا موزونة الا في المقاطع الرئيسية وكانت الكلمات الاغريقية الدخيلة قليلة ، كما كان يبدو في هذا الشعر تأثير البيئة المحلية ، وكان الشعر لا يقرأ عادة وانما يلحن كما جرت العادة في الشرق وكانت الألحان التي يلقي بها الشاعر يشار اليها بلحن مشهور كما هو متبع في الترانيم فيقال مثلا ان هذه القصيدة موضوعة على نسق لحن أغنية كذا ...) (١) وبعد فان قصيدة « ارخيليدس وسنكلتيكي » التي نحن بصدددها لم تصل اليها كاملة كما قدمنا وانما وصلت اليها في اجزاء متفرقة قام بتنسيقها والربط بينها وترجمتها بعض الأساتذة من المهتمين بدراسة الأدب القبطي (٢) وقد قمنا بإيجاز هذا العمل الجميل ، الذي تبدو فيه العاطفة الدينية واضحة ، كما يبدو فيه الصراع بين عاطفية الامومة والشعور الديني العميق جليا ومؤثرا هذا الى بساطة محبة في التعبير والعرض ...

(١) صور من تاريخ القبط للأستاذ الدكتور مراد كامل .
(٢) موجز تاريخ القبط تأليف وليم ويل (الترجمة العربية)

- ١ -

« تصل الأنباء الى « سنكلتيكى » بفرق السفينة التى تقل ابنها
فتتدبه وهى بين الشك واليقين فى موته » :
(أرخيليدس .. يامن أحبه
ويامن لاسمه عذوبة فى فمى
وليس لى من أحبه سواه
يا اخوتى .. وياكافة معارفى
لتحزنوا ... ولتندبوا معى .. لوفاة ابنى الحبيب
الذى لأعرف .. ماذا أصابه)

- ب -

« ويتناقل رواد الفندق ، الحديث عن هذا القديس الجديد
ومعجزاته أثناء حديثهم عن وفاة صديق لهم » :
(آه لو تمكن من الذهاب الى دير « انبا رومانوس »
حيث القديس ... أرخيليدس
ثم توسل اليه ليصلى الى الله من اجله
ليتم له الشفاء
لأن رب السماء ... معه)

- ج -

« وتتسسم سنكلتيكى عرف ابنها خلال هذا الحديث فتوجه الى
الرهبان بهذا الرجاء » :
(التمس منكم يا آبائى القديسين ، أن تخبرونى عن مكان هذا
الرجل حتى أذهب وأتوسل اليه عسى أن يشملنى برحمته .
اذ أنى مصابة بمرض دفين
لا أعرف له كنها منذ أمد طويل .

فاذا ذهبت وتوسلت اليه ...
فقد استرد صحتى ...)

- د -

« ولكن الرهبان يعرفون المهد الذى قطعه ارخيليدس على نفسه
فيجييونها » :

(يا امرأة
اننا نضع عبئا على اكتافه .
وانت .. لا تستطيعين الذهاب الى حيث يقيم
ففى الطريق وحوش كثيرة
وفوق ذلك .. فان القديس ارخيليدس
لا يقع نظره على وجه امرأة .. قط)

- ه -

« وتصل الام الى الدير وتبعث برسولها اليه مزودا بهذه
المقطوعة » :

(اذهب وقل لأرخيليدس ان والدتك بالباب تنتظر
لقد جئت اليك .. لأرى وجهك
حتى اذا مارأيتك ... فانى أموت .
تعال الى يا حبيبى .. لتطيب بذلك نفسى) .

- و -

فيبعث اليها ارخيليدس برسالة يقول فيها :
(لقد عاهدت ربى .. ولا أستطيع ان أحنث بعهدى
الا أتعدى حدود هذا الباب
والأ يقع نظرى ماحييت على وجه امرأة
فاذا مكثت هنا فاجعلنى الدير ديرك

واذا رجعت الى منزلك ... يا والدتي

فليتوكل الرب ... بهدايته) .

- ز -

« فردت عليه سنكتليكي برجائها الحار » .

(يا أرخيليدس ... يا ابني الحبيب .

ان صخب البحار التي أتيت عبرها .

لم يسبب لي من الألم ... ما سببته لي كلمتك .

« لن يقع نظري ماحييت على وجه امرأة ... !! »

يا ابني الحبيب ..

ان الشديدين اللذين أرضعاك ... ينتظراك بالبواب

في شوق الى رؤياك) .

- ح -

« وتكرر الرسائل بينهما ثم ينتهي الموقف بأن يستجيب الله رجاء

الابن بموته .. ويسمح رئيس الدين للام بالدخول حيث تنكفي على

جثة وليدها وترثيه بمقطوعات رائعة تقتطف منها » :

ياكافة من انجبين أبناء تجمعن وابكين معي ..

لقد انجبت ولدا واحدا ، وأنا الذي أوردته حتفه ..

تتوق نفسي للتزود منك بنظرة أخرى ..

هي ائمن عندي من جميع كنوز العالم ..

فليعني الرب ، وعليه القى همومي ..

أيتها النساء ..

ياكافة من انجبين أبناء ..

تجمعن وابكين معي .. (١)

ولكم وددت لو أتيح لي الاطلاع على نماذج أكثر حتى يمكن الخروج

بمحصول أوفى نتمكن به من مشاركة الآباء الاولين أحاسيسهم التي

تمثلها الكلمة المنظومة غير انه لأسباب عديدة رأيت أن أكتفي بهذا الجهد

المواضع الذي قدمته على هذه الصفحات القلائل تاركا لمن هو أجدر

منى مهمة السير في هذا الطريق .

(١) الترجمة لجامعة من الاساتذة بإشراف الدكتور مراد كامل موجز تاريخ القبط تأليف

وليم وول .

- ٦ -

وأعود الى الشعر العربى فى هذه الفترة فأقول انى لم أستطع الوقوف على شعر سكندرى نظم باللغة العربية فى هذه الفترة التى أمتدت الى أربعة قرون ولعل هذا يرجع أولا الى قلة المراجع ثم الى عدم سهولة البحث فى المراجع الموجودة سهولة تيسر للباحث أن يعرف متى وأين نظم الشاعر شعره كما أنه يمكننا القول بأن هذه الفترة كانت مجال أنسلاخ من اللغة الموروثة واندماج فى اللغة الوافدة ، وأن المواطنين كانوا فى مرحلة محاولة التعبير بالعربية عن حاجاتهم اليومية ، ولم تكن سنتهم قد لانت للأساليب الأدبية ذات الطابع البيانى الخاص ، هذا الى جانب أن اللغة القبطية ظلت طويلا بعد الفتح وهى أداة التعبير بين الناس .

ونحن نعرف أن الاسلام نفسه وهو الدافع الأول لاجادة التعبير بالعربية لم يبدأ انتشاره فى مصر الا بعد المائة الاولى ، كما اننا نعرف أن الشعراء العرب نزلوا بالقسطنطين او بالقطن وحيث القادة والوزراء وذوو الثراء وأولو النعمة ممن يتحدثون بالعربية وربما كان هذا أيضا من أسباب افتقار كتب الأدب الى نماذج من شعر الاسكندرية العربى طوال هذه الفترة ، غير أن الذى حدث خلالها كان له الأثر العميق فى تكوين شخصية الشعر السكندرى فيما بعد ، ذلك أن موجات من المهاجرين قد وفدت الى المدينة لعل أطلاها مدا تلك التى حدثت سنة ١٩٨ هـ اذ بلغ عدد المهاجرين من الأندلسيين (الرايضين) خمسة عشر ألفا فى مرة واحدة ، وربما كان هذا هو الذى مهد لهم احتلال الاسكندرية وأنشاءهم لجمهورية منفصلة عن باقى القطر ، واذ كانت فترة الاحتلال هذه لم يمتد أجلها ، الا أنها أعطت الاسكندرية - لأمد طويل - صفة المدينة ذات الحكم المحلى شبه المستقل . .

ويبدو هذا واضحا فى العهود التى أعطيت لبعض الولاة . . اذ كانت تستثنى فيها الاسكندرية من ولاية الوالى على مصر ، أن ينص عليها ، وكذلك مهد هذا الوضع الطريق أمام كثير من العلماء المشاركة والمغاربة وبخاصة من الأندلسيين الذين توالى مجيئهم فيما بعد ، والذين نشهد الى الآن مزاراتهم فى المدينة ونعرف الكثيرين منهم أفضالهم فى التأليف الدينية والدنيوية . .

- ٧ -

ولما كانت الاسكندرية ثغرا من أهم الثغور الاسلامية فقد اتجه كثير من المسلمين وبخاصة من المغاربة الى المراقبة فيها ، مع الجنود القائمين بالذود عنها يبتئون فيهم الشجاعة ويعدون أنفسهم ليوم يقاتلون فيه في سبيل الله ، وهي وجهة طيبة كان لها صدى عميق في نفوس المؤمنين ، ومن ثم راحت تغذيها أقوال نسبت الى التابعين وأتباعهم ، تحدثنا عن الاسكندرية ومكائنها في أسلوب يستمد ظلاله المؤثرة من منابع العقيدة الدينية ، فهذا الامام السيوطي يروي لنا في « حسن المحاضرة » ان عبد الله بن مرزوق الصوفي تحدث فقال (لما نعى الى ابن عمي خالد ابن يزيد وكانت وفاته بالاسكندرية لقيني موسى بن علي بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين كلهم يقولون أليس قد مات بالاسكندرية ؟ فأقول بلى . . فيقولون هو حي يرزق عند الله ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك) وينسبون الى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (أربعة أبواب من الجنة مفتحة في الدنيا ، الاسكندرية وعسقلان وقزوين وجدة) (١) وكان يمكن أن يظل هذا الاحساس النبيل ، على ما فيه من جنوح عن الحقيقة ، ملهما كريما ، يهدي الناس الى الايثار ، ويحبب اليهم التضحية لولا أن انحرف بعضهم فاستكان الى الراحة ، وقنع من الجهاد بالذكر واكتفى من السعي وراء أسباب الحياة بانتظار ما يوجد به ذور النيات الحسنة والحكام .

على أننا لا يعنيننا هنا هذا التحول بقدر ما يعنيننا أنه أصبح عنصرا مؤثرا في المجتمع السكندري وبالتالي فهو رافد من روافد شعره

ويضاف الى هذا بقايا رواسب من ثقافات يونانية ورومانية وقبطية تفاعلت مع الثقافة العربية والاتجاهات الأندلسية والمغربية ومن ثم اندمجت هذه الكيانات في مظهر واحد ، تمثل صداه الذي تأخر في الرنين بعض الوقت في هذا الشعر الذي سنتناوله في الصفحات التالية .

وبعد . . فاني أحسب أنني قد كونت صورة تعبر على ايجازها عن التراث الحضاري الشعري بالاسكندرية قبل عهدها الاسلامية وتمهد لنا الطريق الى المدينة لنصل اليها ونلتقي بشعرائها ونعيش معهم في ظلال هذه الموروثات جميعا ، بعد أن تمثلتها المدينة وأصبح أرباب البيان فيها يتحدثون بلسان عربي مبين .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي :١٠

القسم الثاني

شعر الاسكندرية وملايح من الحياة فيها
في العصرين الفاطمي والأيوبي



- ١ -

الليل يرخى سدوله على ساحل عدن في حين يرسل القمر غلائله
الفضية على ظلين أغرتهما هداة الليل فانطلقا على الشاطئ الساجي
يتلمسان الحنان في نسماته ، وأشاعت الغربة الشفافية في نفسيهما
قراحا يتطلعان بأعين الشوق الى المدينة التي استلقت في اغراء رائع هناك
بعيدا على شاطئ بحر الروم .

وهتف أولهما - أبو بكر احمد العبيدي - من قرارة نفسه .

يا راقد الليل بالاسكندرية لى
من يسهر الليل - وجدا بى وأسهره

وكان رفيقه - أبو العباس احمد الأبي - فى هذه اللحظة يتأمل
مواكب الغمام ، وهى تسبح فى ملكوتها الساحر ، فاسترجعته نفثة
صديقه تلك وأثارت كوامن أشجانه ومن ثم أجابه بعد تنهيدة عميقة ،
وهو يرنو الى البدر المتألق فى صفحة الأفق .

وأشهد البدر مرتاحا لرؤيته
لعل طرف الذى أهواه ينظره

أى وفاء يحمله الشاعران لمحبوبتيهما المقيمتين هناك . فى المدينة
الجميلة - الاسكندرية !! وأى شعور دافئ حنون ذلك الذى يشعر به
السكندرى الغريب حين تقله أرض غير أرضه ، وتظله سماء تتصاعد اليها
أنفاس لاتشاركه مشاعره ؟

الحق أن لبنات الاسكندرية الهيفاوات ذوات الدل ، ولشوارعها
المضيئة الطرقات وقصورها الشامخة ذات العماد ، وخمائلها الفواحة
بالعطر ، ولياليها ذات البهجة الطليقة ، سحرا أى سحر وأثرا بالغيا فى
نفوس أبنائها مبلغا لايمكن أن تستأثر به أية بقعة من بقاع الفتنة فى
العالم كله .

وربما وجدنا فى مقطوعة الشاعر السكندرى أبى الربيع سليمان بن

فياض ما يبرر هذه العاطفة الجياشة نحو أرض المدينة الغنية بذكرياتها ،
الثرية بمواطن السحر فيها :

أرض سحبت وأترابى تماثمتا
طفلا وجرت فيها ناشتا رسنى
انى التفت فكم روض على نهر أو استمعت فكم داع على غصن
كم لى بالآف هاتيك المنازل من ألف وسكان تلك الدور من سكن
ما اخترت قط على عهدى بقربهم حظا ولا بعت يوما منه بالزمن

- ٢ -

والاسكندرية وقتئذ فيما يقول ابن الأثير «مدينة تزخر بالبساتين
الأنيقة ، والمنتزهات الفائقة ، ترتفع فيها القصور والجواشن الدقيقة البناء
المحكمة الجدر والأبواب» (١) .

ومن أجمل معالمها المنار العظيم الذى فتن كثيرا من الشعراء الوافدين
فتغنوا بقصائدهم فى وصفه كهذا الذى نقرأه للشاعر أبى عبد الله محمد
ابن أبى الحسن حفيد الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد .

لله در منار الاسكندرية كم يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الأنف فى عرينه شمم كأنه باحث فى دارة الأفق
يكسر الموج منه جانبى رجل مشمر الذيل لا يخشى من الفرق
للمنشآت الجوارى عند رؤيته كموقع النجم من أجفان ذى أرق

كذلك كانت هذه المنارة مجالا لشعراء الاسكندرية مجتلى لابداعهم
ومعرضا يتبارون عنده فى ابداء فتنهم .

صعد الشاعران أبو الحسن على بن الدورى وابو الفتح بن قلاقس
فوقها ذات مرة وهى تسمق فى شموخ واذا أخذتهما روعة المنظر ، اقترح
ابن قلاقس على صديقه أن يصفه ، فاستجاب اليه وقال :

وسامية الارجاء تهدى الى السرى ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
ليست بها بردا من الأنس صافيا فكان بتذكارات الأحبة معلما
وقد ظللتني من ذراها بقبة لاحظ فيها من صحابي أنجما
فخيل أن البحر تحتى غمامة وانى قد خيمت فى كبد السما

(١) صبح الامشى للقلقشندي ج ٣ ص ٤٠٨ .

ولقد طرب ابن قلاقس لهذه الأبيات وأعجب بشاعرية صديقه
فأنشد يصف المنارة ، ويصف كذلك شعر صديقه فيها :

ومنزل جاوز الجوزاء .. مرتقيا	كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القراة سامى الفرع فى يده	للنور والنور أخبار وآثار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت	خيل لها فى بديع الشعر مضمار
ولم يدع حسنا فيه أبو حسن	الا تحكم فيه .. كيف يختار
على المنارة لما حل ذروتها	بجوهر الشعر بحر منه زخار
مازال يذكرى بها نار الذكاء الى	أن أصبحت علما فى رأسه ناز

والحق أن هذا المنار فى ذاك الوقت كان احدى عجائب الدنيا ، وقد
كتب عنه ابن جبير الأندلسى فى رحلته المشهورة فقال : «ومن أعظم
ماشاهدناه من عجائبها - يقصد الاسكندرية - (المنار) الذى هو آية
للمتوسمين وهداية للمسافرين ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه
الطرف ، الحبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع ، وأما داخله فمرأى
هائل واتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيها ،
والوالج فى مسالكها ربما ضل الطريق (٢،١) »

- ٣ -

ومتنزهات الاسكندرية ذات الغدران التى تيمس تحت ظلال أوداحها
أوحى هى الاخرى لشعرائها بكثير من المقطوعات الجميلة وهذه واحدة
منها للشاعر ابن مكنسة .

ذات غدير خلته	صرح زجاج مردا
ثم انثنى منعطفًا	مرتعشا .. مرددا
خاف من الريح وقد	هت به .. فارتعدا
كأنما يد الصبا	مدت عليه زردا

وهذه مقطوعة أخرى من قصيدة للشاعر ظافر الحداد يصف فيها
روضة على الخليج .
والماء يبدو فى الخليج كأنه أيم (٣) لسرعة سيره محفور

(١) مكان المنارة الآن حصن قايتباى .

(٢) مابين الموقوفتين زيادة من الكاتب للايضاح .

(٣) الأيم = ذكر الحية البيضاء .

والروضى فى حلل النبات كأنما فرشت عليه ديايح وخزور
والزهر يوهىم ناظره بأنه ظهرت به فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق (١) وساقط طله در ونور بهساره ابريز
وكانما القمى ينشد مصرعا من كل بيت والحمام يحيز
وهذه أبيات من قصيدة للشاعرة تقيّة الصورية فى وصف احدى
الرياض :

والروض مبتسم بنور أقاحه لما بكى فرحا عليه غمامها
والنرجس الغض الذى أحداقه ترونو لتفهم ما يقول خزامها
والورد يحكى وجنة محمرة انحل من فرط الحياء لثامها
ويبدو فى هذه المقطوعة كلف الشاعرة بالمقابلة بين الابتسام والبكاء
فى البيت الاول كما يبدو أثر طبيعة المرأة الشرقية من حياء وخفر فى
البيت الثالث .

كما كانت هذه المتنزهات مسرحا للغيد الحسان ينتقلن بين أزهارها
ويشعلن الوجد فى أفئدة روادها . ومن الرسالة التى بعث بها القاضى
الأعز بن المؤيد الى على بن ظافر نستطيع أن نلمح كيف كان الجمال
السكندرى فى ظلال هذه الرياض يثير شاعرية الشعراء من أبناء المدينة .
(تساورت أنا والقاضى أبو العباس احمد بن يحيى بشاطئ خليج
الاسكندرية من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة السوارى وقد رقصت
أشجاره على غناء أطيّاره ، وملا لها ساقى الغمام كئوس جلناره . فبينما
نحن نتناشد من نفيس رقيق الاشعار ، ونتعاطى من كئوس رحيق الاخبار
ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلت من البدور ، ومن نجوم تلك الأزهار
مع طلوع شمس النهار كيف لا تغور واذا بجوار هناك جوار ، وبدور من
قبل السوارى فقلت :

لله أى بدور من السوارى سوار
فقال أبو العباس :

من كل هيفاء جرسى الـ وشاح خرسى السوار
فقلت :

لاحت فحلت وحلت قلبى وعقد اصطبارى

(١) الورق بكسر الراء = الفضة .

فقال :

تنوب فرعاً ووجهاً عن الدجى والنهار

فقلت :

فناظرها وقلبي ما بين راض وضار

فقال :

وخدها وفؤادى من جلنار ونار (١)

ويصف ظافر الحداد كيف التقى بطيف محبوبته في إحدى هذه الرياض بقوله :

وصادح في ذرى الأغصان نبهني من غفوة كان فيها الطيف قد طرقا
فكان بين تلاقينا وفرقتنا كما تبسم برق غازل الأفقا

- ٤ -

كذلك تركت قصور الاسكندرية في دواوين شعرائها آثاراً رائعة
نتمثل منها بقصيدة ابن قلاؤس التي منها :

قصر بدرجة النسيم تحدثت	فيه الرياض بسرهما المستور
خفض الخورنق والسدير (٢) سموه	وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مكية	وأقام في أرض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه	فأفتر عن نسور يرقق ونور
فالدوح يستحب حلة من سندس	تزهو بلؤلؤ ظلها الموفور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت	بسبائك المنظوم والمنثور
والبحر يرعد متنه فكانه	درع تسن بمعطفى مقررور
وكاننا والقصر يجمع شملنا	في الأفق بين كواكب وبدور

وهي كذلك تحفل بالأوانس الفاتنات كاللواتى تيمن الشاعر ظافر
الحداد فقال في دار حفلت بباقة ناضرة منهن .

سائل الدار ان سالت خبيراً واستجر بالدموع تدع مجيراً

(١) بدائع البدائى لعل بن ظافر .

(٢) الخورنق والسدير قصران عظيمان ذكرت كتب التاريخ انهما كانا ببلاد العرب .

هي دار العيش العزيز بما ضمت قضيبيا لدناوظبيا غريرا (١)
 ما تخيلت أنها جنة الخلد الى أن رأيت فيها الحورا (٢)
 يا لواة الديون هل في قضاء الحسن أن يطل الغنى الفقيرا (٣)
 احفظوا في الاسار قلبا تمنى شغفا أن يموت فيكم أسيرا
 وقتيلا لكم ولا يشتكيكم هل رأيتم قبلي قتيلا شكورا ؟

- ٥ -

فهل تستحق الغادة السكندرية من عشاقها كل هذا العناء ؟ الحق
 أن لخطواتها صدى في قلوب الشعراء ، ولأسهم عينيها مرمى في الأفئدة
 الظامئة المتطلعة اليها ، ولتأود قدها فعل السحر في قلوب محبيها ، فهذه
 الحسنة ذات الأعين الوسنانة ، وتلك سمة من سمات الجمال في ذلك
 العهد - اذ لم تكن العيون الجريئة قد شقت طريقها بعد هذه الغادة
 تثير الشاعر ظافر الحداد فيقول :

في لحظها مرض للتيه تحسبه وسنان أو فقريب العهد بالرمد
 تريك ليلا على صبح على غصن على كثيب كموج الرمل مطرد
 وتلك التي تلتفت وراءها لترى ماذا صنعت برشاقتها في قلوب
 الناظرين اليها ، يقول ابن قلاقس فيها :

لوت حين ولت لنا جيدها فأى حياة بدت في وفاة ؟
 كما ذعر الطبى من قانص ففر وكرر في الالتفات
 وهذه أخرى تمشى في خطوات وليدة ضيقة يملها عليها دلالتها فتثير
 شاعرية ابي الحسن بن معبد فيقول :

ومهفهف طالت ذوائب فرعه كالليل فاض على الصباح المسفر
 قصر الدلال خطاه فاعتلقت به لى مقلة عن حبه لم تقصر

ثم هذا سرب من الغواني يلتقى بهن الشاعر ابن قلاقس وهن
 يزدهن بزينة مسترجلة فيقول :

عقدوا الشعور معاهد التيجان وتقلدوا بصوارم الأجفان
 ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم هن الكماة عوالى المران
 وتدرعوا زردا فخلت أراقما خلعت ملابسها على الغزلان

(١) و (٢) و (٣) - ابیات متصلة .

- ٦ -

كل هذه الصور المشرقة التي تتألق في طرقات الاسكندرية وكل هذه الثورة الطائلة من الحسن والفتنة والاثارة التي تسكن دورها وقصورها وتبعث دفء الحياة في عواطف أهلها ، وكل ألوان الجمال الموروث في سلاستها ، المؤتلفة عبر الزمن ، هي التي فتحت أمام شعراء المدينة طريق الغزل ، فقدموا لنا منه باقات ناضرة • تحمل وهج الحب وحرارة الشوق وثرء الكلمة ، ورشاقة التعبير فالى جانب النماذج التي أوردناها في ثنايا هذا البحث نستمتع هنا الى نماذج أخرى تبين لنا كيف كان هذا الشعر حافلا بالصور الجميلة ، بعيدا في كثير من حالاته عن التكلف الذي يتضح أحيانا في كثير من شعر الحب القاهري ، فمن قصيدة لأبي الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز السكندري (١) يقول فيها :

يا ساحر الطرف ليل ماله سحر وقد أضر بجفني بعدك السهر
ولست أدري وقد صورت شخصك في قلبي المشوق • أشمس أنت أم قمر
ما صور الله هذا الحسن في بشر وكان يمكن ألا تعبد الصور
أموت وجدا ومالي منك مرحة وكم حذرت ولم ينفعني الحذر
استغفر الله • لا والله ما خلقت عيناك الا لكي يفنى بها البشر

وله من قصيدة رقيقة :

أيها المتجنى	ما الذي رابك مني ؟
بالذي لم يفنني عنـ	ك وقد أغناك عنـ
لا تنقص عيشة	أنت لها أقصى التمني

ومن قصيدة لابن قتادة :

أسباك منه جيدة أم طرفه أم شكله أم دله أم طرفه ؟
يا ناظري أم ورد وجنته الذي يلتذ للعين البصيرة قطفه
صافحته فشكت أنامله الأذى وتألمت من لمس كفى كفه

(١) عاش بالاسكندرية وسافر الى بغداد فمات بها سنة ٦٠٣ هـ •

ومن أخرى لوصف الملك بن الدباغ :

يا رب ان قدرته لمقبل غيرى فللاقداح أو للأكؤس
فاذا قضيت لنا بعين مراقب في السر فلتك من عيون النرجس

ومن قصيدة لأبي حميد الاسكندراني :

هوان كسى جسمى ثيابا من الضنى
فأصبحت فيها كالخيال نبصرى
فصل أو فقاطع لست أجفوك عندها
ولو مت من شوقى وفرط تذكري
فأعذب ما ألقى الهوى وألذه
إذا جار محبوبى وقل تصبرى

. ومن أخرى لابن معبد القرشى :

يا حادى العيس رفقا بالحبيب فقد
طار الفؤاد وقل الصبر والجلد
لعل حبي يرى ذلى .. فيرحمنى
بنظرة عليها تشفى الذى أجهد

ومن قصيدة لظافر الحداد :

هذا الفراق وهذه الاطمان
هل غير وقتك للدموع أو ان ؟
ان لم تفضها كالعقيق فكل ما
تدعوه من سنن الهوى بهتان
ان كنت تدخر الدموع لبيئهم
فالآن قد وقع الفراق وبانوا

ومن قصيدة لاسماعيل بن مكنسة :

أعاذل ما هبت رياح ملامه
بنار هوى الا وزادت تضرمها
فكلنى الى عين اذا جف ماؤها
رأت من حقوق الحب أن تذرف الدما
فكم عبرة أعطت غرامى زمامها
عشبة أعملن المطى المزمما

وعين حماها ان يلم بها الكرى
أحاديث أيام تقضين بالحمى
ولله قلب قارعتة همومه
فلم يبق حد منه الا تثلما

- ٧ -

على أن النساء فى هذا العصر لم يكن متاعا خالصا همهن الحب
والزينة وإرضاء العشير . ونعما هذا - وانما شاركن بجوار ذلك فى بناء
المجتمع الفكرى والأدبى أيضا فكان منهن الفقيهات الجليلات ، والمحدثات
الفضليات (١) وكان منهن كذلك الشاعرات الملهيات

ونورد هنا نماذج للشاعرة تقية الصورية (٢) نستطيع أن نتبين
فيها سماتها النفسية فى وضوح وجلالة ، فقد كتب اليها أحد الشعراء
أبياتا تعرض فيها لأبيات مدحت بها نفسها ، ذلك حيث يقول :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه
ولكن أفعالا تدم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء قلبه
ولا كل أصحاب التجارة تربح
ولا كل من ترجو لفبيك حافظ
ولا كل من ضم الوديعه يصلح

فردت عليه بأبيات نسمع فيها صدى اعتزازها المستمد من ثقمتها
الكبرى بنفسها ومن عرفان أكبر بقيمتها وهذه هى :

تعيب على الانسان اظهار علمه
أبالجد هذا منك أم أنت تمزح ؟
فدتك حياتى قد تقدم قبلنا
الى مدحهم قوم وقالوا فأفصحوا
وللمتنبى أحرف فى مديحه
على نفسه بالحق ، والحق أوضح

(١) منهن ترفة بنت احمد الرازى ٥٣٤ هـ والخفزة بنت المبشر ٥٢٨ هـ .
(٢) أم على تقية بنت غيث بن على الارمنازى ولدت فى دمشق ٥٠٥ هـ وعاشت بالاسكندرية

أروني فتاة في زمانى تفوقنى
وتعلو على علمى وتهجو وتمدح
وهى تتعمق المعنى أحيانا حتى تأتى به دقيقا كما فى الشطرة
الرابعة من البيتين التاليين :

نأيت عنكم وفى الاحشاء جمر لظى
وسقم جسمى لما أهواه عنوائى
إذا تذكرت أياما لنا سلفت
أعان دمعى على تغريق نسيانى

وفى الأبيات الآتية توشك الشاعرة أن تصرخ اعلانا لنقمتمها على
جمود بعض الناس لولا أن بحر السريع الذى صاغت فيه الشاعرة
قصيدتها قد ضيق المجال أمام انفعالها وصدده أن يأخذ مداه :

خان أخلائى وما خنتهم
وأبرزوا للشمر وجها صفيق
وكدروا الود القديم الذى
قد كان قدما صافيا كالرحيق
وباعدونى بعد قربى لهم
وحملوا قلبى مالا أطيق

ويروى لها صاحب نفح الطيب الأبيات التالية التى تصف شرور
الحمر ويبدو فيها كلف الشاعرة بالبديع فى تجنيسها لقوافيها الثلاث :

لا خير فى الخمر على أنها
مذكورة فى صفة الجنه
لأنها ان خامرت عاقلا
خامره فى عقله جنه
يخاف أن تقذفه من علا
فلا تقى مهجته جنه

وتقىة بعد ذلك ، فتاة بارعة الجمال فائقة الحسن اشتغلت بالأدب
ودارت بينها وبين الأدباء والشعراء مراسلات أدبية وقد أوردنا مثالا منها،
وهذه أبيات لشاعر سكندرى تنم عما لتقىة من وسامة خلق وسماحة
نفس وكانت الشاعرة قد أهدت اليه هدية من التوت الاحمر فكتب اليها
يشكرها :

وتوت أتنا ماؤه فى احمراره
 كدمعى على الأحباب حين ترحلوا
 هدية من فاقت جمالا وفطنة
 وأبهى من البدر المنير وأجمل
 فلا عدمت نفسى تفضلها الذى
 يقصر وصفى عن مداه ويععدل
 ولقد ردت عليه بأبيات لم يبق لنا منها سوى :
 أتانى مديح يخجل الطرف حسنه
 كمثل بهى الدر فى طلى قرطاس
 هذا وقد توفيت تقيّة الصوريّة سنة ٥٦٩ هـ .

- ٨ -

وليالى الاسكندرية فى ذلك العهد كانت تحفل بكل ما يثير العاطفة
 ويلهب الحس من لهو وطرب وقصص ، وقد خلف الشعراء آثارا حية
 بانطباعات هذه المثيرات فى أنفسهم .

وهذه ألوان من شعر ابن قلاقس يصف فيها مباحج هذه الليالى
 فمن قصيدة له يصف مجلس غناء :

ومغن تناولت يده العو
 د فعادت بنا الى الأفراح
 بين ريح من المزامير أسرى
 بين أجسادنا من الأرواح
 وصباح قد عقدوا طرر الليل
 جمالا على الوجوه الصباح

ومن مقطوعة أخرى ينتقد فيها مجلس غناء لا تجانس فيه فيقول
 فى سخرية تدل على حسن تذوقه لفن الغناء .

ينافر ايقاعه صوته
 فهذا يزيد وذا ينقص
 ويتبعه زامر مثله
 تبسم له نفس أوقص (١)

(١) أوقص = نصير .

فان قام ما بيننا راقصا
فكل الى بيته . . يرقص
وهو يصف لنا في مقطوعة ثالثة أحد الراقصين من الضاربين بالدف
وكان ذا جمال باهر فيقول :

مر بيميناه على طاره
يلمسه أحسن ما لمس
وواصل النقر على اصبع
تغنيه لو شاء عن الخمس
فحدثوا عن قمر مشرق
يلعب بالبرق على الشمس
وهذه ساقية حسناء في مجلس شراب يصفها بقوله :

اشرب معتقة الطلا صرفا على
رقص الغصون بروضة غناء
من كف وطفاء الحفون كأنما
تسعى بنار أضمرت في ماء
في سحر مقلتها وخمرة ريقها
شرك العقول وآفة الأعضاء

- ٩ -

فاذا تركنا مجالس اللهو وأردنا أن نشهد مجالس الأدب طالعنا
صحف ذلك العصر بصور رائعة تشهد بما كان عليه أهله من حسن تذوق
للفن ورهافة في الحس وترف في المعيشة ، ويقدم لنا على بن ظافر أحد
هذه المشاهد في كتابه بدائع البدائه .

« أخبرني ابن المؤيد رحمه الله قال : اجتمعنا مع جماعة من أدباء
أهل الاسكندرية في بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضا تثنت قامات
أشجاره وتغنت قينات أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء كجو السماء فنثر
عليها بعض الحاضرين ياسمينا زان سماءها بزواهر منيرة ، وأهدى الى
لجتها جواهر نثيرة ، فتعاطينا القول في تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك
خاطره وتنبيهه ، ثم أظهرنا ما حررنا ونشرنا ما حبرنا فأنشد العباس بن
طريف الخراط :

نثروا الياسمين لما جنوه
عبثا فاستقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى
زهر الأرض فى أديم السماء
وأنشد الأديب أبو الحسن على بن سيف الدين الحصرى :

نثروا الياسمين لما جنوه
فوق ماء أحجب به من ماء
فحكى زهره لنا اذ تبدى
زهر الشهب فى أديم السماء
قال ٠٠ وكان الذى صنعته :

نثروا الياسمين فى لجة الماء
فخلنا النجوم وسط السماء
فكان السماء فى باطن الأرض
أو الدر طف فوق الماء
قال ٠٠٠ وسمع أبو عبد الله بن الزين النحوى القصة ولم يكن
حاضرا معنا فقال :

نثر الغلام الياسمين ببركة
مملوءة من مائها المتدفق
فكانما نثر النجوم بأسرها
فى يوم صحو فى سماء أزرق
قال على بن ظافر (١) فصنعت :

زهر الياسمين ينثر فى الماء
أم الزهر فى أديم السماء ؟
ظل يحكى عقود در على صد
ر فتاة فى حلة زرقاء ٠ ٠

واعتقد خلافا لما قاله الراوى أنه لم يكن الشعراء منفردين بأفكارهم
ساعة أن نظموا هذه المقطوعات فإن هناك اتفاقا فى ابتداءات المقطوعات
الثلاث الأولى كما أن هناك اتفاقا فى القافية ٠

(١) ما بين المعقوفين (زيادة ليست فى الأصل)

وأعتقد أن أروع ما فى هذا المشهد هو تمثيله للون من ألوان الحياة
كان الأدب عنصرا بارزا فيه أما الناحية الفنية فيه فانها لا ترقى الى
المستوى الفنى العام لشعر هذا العصر .

- ١٠ -

وهذه قصة أخرى رواها العمار الاصفهاني فى الخريدة والعماد
الحنبلى فى شذرات الذهب . ويدل بها ابن خلكان فى وفيات الاعيان
على شاعرية ظافر الحداد ، ومؤدى هذه القصة : أن خاتم الامير السعيد
ابن ظفر حاكم الاسكندرية كان قد ضاق على خنصره ، فأرسل الى
الشاعر ظافر الحداد يستدميه ليرده له فحضر وفعل ثم أنشده
والمجلس منعقد حوله :

قصر عن أوصافك العالم فاعترف النائر والنناظم
من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره العالم
فاستحسن الامير الشعر ووهبه الخاتم ولعل ظافرا لحظ أن الامير
داخله الشك فى شاعريته فاغتنم فرصة وجود غزال مستانس رابض بين
يدين الامير ورأسه فى حجره فقال :

عجبت لجزأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد
وامعجب به اذا بدا جائسا وكيف اطمأن وانت الاسد ؟
فازداد الامير اعجابا به وبشاعريته ومنحه جائزة ، وهنا أراد أحد
الحاضرين أن يعرف المدى الذى يمكن لشاعرية ظافر أن تسعفه فيه ،
فاقترح عليه أن يصف الشبك الذى كان مسدولا على الباب ليمنع دخول
الطير الى القاعة فأنشد على الفور :

رايت يسابك هذا المنيف شبكا فادوكنى بعض شك
وفكر فيما رأى خاطرى فقال البحار مكان الشبك
وبلغ اعجاب الامير غايته وهو يمنحه جائزة أخرى ٠٠٠ ويقول للذى
اقترح عليه ذلك : «كفى والانزع ما على أجسامنا» .

وهى قصة تدل فيما أرى على توقد الدهن وسرعة الخاطر والقدرة
على اقتناص الفكرة ، ثم نظمها فى سهولة ويسر ، تدل على هذا بأكثر مما
تدل على أصالة الشاعرية وعمقها ، تلك التى تؤكدنا نماذج أخرى عديدة
ورائعة لهذا الشاعر سنورد بعضها فى موضعه وفى ترجمته الخاصة ،
وهى تدل كذلك على روح احكام ذلك العصر فى الاستماع الى هذا اللون
من الادب ، والاستمتاع به والاثابة عليه .

- ١١ -

وهذه المجالس وماكان يدور فيها من حوار رشيق بين روادها
وما يتناقلونه من طرائف أدبية ومايتناشدونه من أشعار مطربة ،
وما يتفكهون به من فكاهات بارعة تشيع روح المرح والسرور بين السماء
تركت من الاثر مارق من خشونة الخلق السكندري وأشاع في العصر
روحا من السخرية اللاذعة التي تبدو جلية في مقطوعات الهجاء والمداعبة
التي وصلت إلينا وفيما يلي بعض هذه النماذج التي يحسن بنا الاستماع
إليها ومحاولة التعمق فيها حتى يمكن أن ندرك خصائص السكندريين في
هذا اللون من الشعر وهي نماذج تتأرجح بين القسوة الجارحة والدعابة
الهيثة والتناول العميق وهذه مقطوعة للشاعر ابن مكنسة يسخر فيها
من صديق له أعلن التوبة .

يارب عريبد اذا ما انتشى	أربى على المجنون في مسه
قالوا لقد تاب .. ووالله ما	يتوب أو يجعل في رسمه
وانما توبته هذه	عريبدة أيضا على نفسه

وهذه أخرى للشاعر محمود بن ناصر يداعب صديقا له يشتغل
بالطب :

صديقنا المستطب .. نادرة	قد أخذت منه أعين الناس
أنياب غول ومشفرا جمل	ورأس بفل وذقن نسناس

ولمحمد بن الخمشى يهجو «عين الملك»

ألا ان ملكا انت تدعى بعينه	جدير بأن يمسى ويصبح أعورا
فان كنت عين الملك حقا كما ادعوا	فان له العين التي دمعها جرى

ولعبد المحسن الرقيق :

ماكنت أدري قبل منظره	أن المسيح الدجال قد ظهر
من قال ان الاله خالقه	فانه بالاله قد كفر

ولابن قلاقس يهجو أحد الزامرين :

تعبت فما أتيت لنا بشيء	فكيف تكون ساعة تستريح ؟
فلما تكثر علينا في محال	بزمرك صبح ان الزمر ربح

ولعل أخف ألوان الهجاء وأرقها هو مايمثل في بيتي الشاعر
الأندلسي الرائد أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت في أحد أصدقائه :

أنا أزعاه مكرها ، وبقلبي منه ما يلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآه ولكن أصونه .. وأجمله
وهما يشبهان في اتجاههما العام بيتي الشاعر ابن جبير في
صديق له :

لى صديق خسر في وداى
حين صارت سلامتى منه ربها

حسن القول سيء الفعل
كالجزار سمى وأتبع القول ذبحا
ومن الهجاء الذى يتصل الخيال فيه بالآثر الدينى قول قتادة في
المكربل بعد موته :

قالوا المكربل قد قضى فأجبتهم
مات الهجاء وماش عرض العالم
ماتسمعون ضجيج مالك معلنا
وجنوده لامرجبا بالقادم

- ١٢ -

وفي هذه المجالس ، وفيها ما فيها من دوافع المنافسة وبواعث
الاجادة ، أبداع الشعراء في الوصف وبخاصة في وصف ماكان يقع تحت
أنظارهم فيها ، أو ماكان يقترح عليهم النظم فيه ، وبذلك اتاحوا لنا أن
نستمع بهذه اللوحات الفنية الجميلة وقد سبق لنا تقديم حوار
شعرى حول منظر الياسمين الذى ألقى به غلام في الماء .

ونعرض هنا بضعة نماذج لطائفة من شعراء هذا العصر يصورون
لنا فيها بعض المشاهد المألوفة في دقة وإبداع . فهذا ظافر الحداد يصف
السماك :

يروكك نيتا وفي قلبه فتنظر في حالتيه العجب
نصول السكاكين مصقولة وفي القلى تمويهها بالذهب
وآبن قلاقس يصف بطيخة صفراء :

أنا الفقيصة ببطيخة وسكينة قد أجيدت صقلا
فقطع بالبرق بدر الدجى وناول كل هلال هلالا

ويصف السفن في البحر بقوله :

تري المواخر تجرى في زواجره
فترتقى في أعاليه وتنحدر
من كل سوداء مثل الخال يحملها
بوجنة منه فيها للضحى خفر

«وزين القضاة» يصف القطائف :

لله در قطائف محشوة
من فستق دعت النواظر واليدا
شبهتها لما بدت في صحنها
بحقاق عاج قد حشين زبرجدا

والشاعر السكندري «ابن عباد» يصف اقحوانة :

والاقحوانة تحكى وهي ضاحكة
عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب
كانها شمس من فضة حرست
خوف الوقوع بمسمار من الذهب

ويصف الشاعر الاندلسي «ابو الصلت» نزيل الاسكندرية جميلا
قد تلفع بشال أحمر :

اقبل في قمرزية عجب قد صبغت لون خده الشرق
كأنما جيده وغرته من دونها اذ بدون في نسق
عمود فجر من فوقه قمر دارت به قطعة من الشفق

ثم نورد بيتين للقاضي «سند بن عنان» (١) يصف لنا كيف اجتز
اول شعرة بيضاء اشرقت بمفرقه وكيف سخرت منه هذه الشعرة وذلك
في قوله :

وزائرة للشيب حلت بمفرقى
فبادرتها بالنتف خوفا من الحنف
فقال على ضعفى استطلت ووجدتى
رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

(١) توفي بالاسكندرية في ٥٤١ هـ ودفن بمسجد صغير تؤدي فيه الصلاة الآن بحي الفراادة

- ١٣ -

وكأثر من آثار هذه المجالس ظهر لون من الشعر يمتاز بوضوح
خيوط الثقافة التي تسرى في ثناياه ، ونتمثل هنا بمقطوعات من هذا
الشعر على أن هناك نماذج أخرى عديدة يمكن تتبعها في هذا القسم من
البحث ، والمقطوعة الاولى للشاعر أبي عمران موسى السخاوي وتبدو
فيها ظلال من البداوة العربية في التركيب اللفظي والخيال في البيتين
الاول والثاني فاذا انتقلنا الى الثالث والرابع وجدنا الشاعر وقد استعار
كلمات النجاشي لليل وقصر للصباح ثم يصف محبوبه بأنه يرتدى زى
الاتراك ، والاتراك كانوا في هذا العصر يمثلون عنصرا ممتازا في المجتمع
من الناحيتين الجمالية والمادية :

هـذى ديارهم وتلك نوار
ثأت النوى وتدانى الأوطار
ولرب موحشة قطعت ومؤنسى
طرف أغمر وكوكب غرار
حتى استجاش على نجاشى الدجى
من قيصرى السدفة الاسفار
وانى بوى الترك (يرفل) فى قبا
الشهب حول جيوبه أزار

والمقطوعة الثانية للشاعر أبي الربيع سليمان بن فياض ويبدو أثر
المعرفة بالاتجاهات الدينية في عصره في البيت الاخير منها :

تخفى الصبابة مرة وتبوح	بانت على من الارك تنسوح
ولها حديث في الفؤاد صريح	مجما ماكادت تبين لسامع
مهلا بشمك انه لصحيح	أمريضة الاحشاء من فرق النوى
شملى على سنن الفراق طريق	أوما رأيت تجلدى وأنا الذى
لجسوم أصحاب التناسخ روح	تقتاذف الايام بى فكأننى

والمقطوعة الثالثة من قصيدة لظافر الحداد يتحدث فيها عن تلك
الليالى الجميلة التى كان يقضيها هو ورفاقه الادباء في مصاحبة الشاعر
أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

ليالى يدنينا جـواب أعادنا
من القرب كالصنوين ضمهما ساق

وما بيننا من حسن لفظك روضة
 بها حسدت منا السامع احداق
 حديث .. حديث .. كلما طال موجز
 مفيد الى قلب المحدث سباق
 يزجيه بحر من علومك زاخر
 له كل بحر فائض اللج رقراق
 معان كاطواد الشوامخ جزلة
 تضمنها عذب من اللفظ غيداق
 به حكم مستنبطات غرائب
 لا بكراها الفر الفلاسف عشاق
 فلو عاش رسطاليس كان له بها
 غرام وقلب دائم الفكر تواق

والمقطوعة الرابعة للشاعر نصر بن عبد الرحمن الفزاري وهي تدل
 على مدى تغفل حب الكتب في نفس قائلها وحرصه عليها وخسرته على
 مصيرها بعده ، ذلك حيث يقول :

أقلب كتباً طالما قد جمعتها
 وأفنت فيها العين والسمع واليد
 وأصبحت ذا ضن بها وتمسك
 لعلمي بما قد صفت فيها منضدا
 وأحذر جهدي أن تنال بنائل
 مبيد وأن يفتالها غائل الردى
 وأعلم حقاً أنني لست باقياً
 فياليت شعري من يقلبها غدا ؟

والمقطوعة الخامسة لابن قتادة وهي وإن كانت غزلية إلا أن الفاظها
 ذات إيماءات ثقافية :

نظري اليك يزيد في نظري
 فعلم تحجبني عن النظر
 يا جملة الحسن التي اقتسمت
 منها المحاسن جملة البشر
 لهواك بين جوانحي كتب
 قد عنوت بالدمع والسهل

وهناك لون من الشعر الثقافي المنظوم في موضوعات علمية وهو
يخلو في الغالب من الروح الشعرية لذلك نكتفي بالإشارة إليه .

- ١٤ -

والى جانب هذه المدارس الدينيّة كانت هناك المجالس الدينيّة
التي كانت تعقد في مجالس المدينة الكثيرة العدد وفي المدارس الدينيّة التي
انتشرت انتشارا واسعا في الاسكندرية حيث يستمع الناس الى بحوث
اساتذة اجلاء من اهل المدينة ومن الوافدين اليها من بلاد القطر المصري
والاقطار العربيّة الاخرى ومن الاندلسيين الذين كانت لهم مكانتهم العلميّة
والعدديّة . وكان لابد لهذا التيار الديني الضخم أن يترك اثره في الشعر
السكندري ، وكان هذا الاثر واضحا حتى في الشعر الذي نظم في غير
الاغراض الدينيّة ، وهذه أبيات من قصيدة خمريّة لابن قلاؤس يقول
فيها :

ومصفرة قد أسقم الدهر جسمها
فصحت وفي النيران تصفو السبائك
عجوز عليها سبحة من حسابها
تصلى على قوم بها وتبارك
عكفنا على حافاتها .. فكانها
مشاعر تقوى أوثرت أو مناسك

ونرى فيها الفاظ « سبحة وصلاة وبركة وعكوف ومشاعر وتقوى
ومناسك » هذا غير الصورة العامة ذات الایحاءات الدينيّة . ومن خمريّة
أخرى لوصف الملك أبي الحسن بن الدباغ :

مستفاض من معجزات الشمول انها تظهر الضحى في الأمصيل
فأروني كيف المساء أسير والأسى في سلاسل السلسيل
أي معنى هدى ولفظ ضلال ان تريك الأفول غير أفول

ونرى فيها كسابقتها كلمات « مستفاض ومعجزات وضحى وسلاسل
وسلسيل وهدى وضلال » الخ . . .

فإذا انتقلنا الى الغزل صادفتنا أيضا في بعضه هذه المعاني ذات
الظلال الدينيّة . فنقرأ مثلا مقطوعة محمد بن الخمشي :

قال لى العاذل فى حبه وقوله زور وبهتان
ما وجه من أحببته قبله قلت ولا قولك قرآن
فتستمع فيها الى كلمات « زور وبهتان وقبلة وقرآن » هذا غير
الايعاء العام للبيتين ، ونلمح أمثال هذه الظلال فى الأبيات الغزلية التالية
للطرطوشى :

قمر أنى من غير وعد حفتا شمائله بسعد
قبلته ورشفت ما فى فيه من خمر وشهد
فمزجت وزن السلسيل بزنجبيل مستمد
ولثمت فاه من الغروب الى الصباح المستجد

- ١٥ -

هذا الى جانب الشعر الدينى الصرف الذى نكتفى منه بالنماذج
التالية ، فمن قصيدة لابن غسان الكاتب :

توكل على الله جل اسمه ولا ترجون سواء تعالى
وكل امرئ يرتجى غيره لكشف الملمات يرجو محالا
ومن أخرى للمفضل بن أبى الحسن اللخمى ويبدو فيها اهتمامه
بتجنيس القوافى :

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسل وأصحابه والتابعين تمسكى
عساك اذا بالغت فى نشر دينه بما طاب من عرف له أن تمسكى
وخافى غدا يوم الحساب جهنما اذا لفحت نيرانها أن تمسك

ومن قصيدة لاحمد بن على الرشيد :

سمحنا لدنيانا بما بخلت به علينا ولم نحفل بحل أمورها
فياليتنا لما حرمتنا سرورها وقينا أذى آفاتنا وشورها

ويبدو كلف ابن جبير بالجناس وقد كان البدعة السائدة فى عصره
فى هذين البيتين :

اذا بلغ العبد أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أم له
فان زار قبر نبي الهدى فقد أكمل الله ما أمه

وفى هذين البيتين :

اياك والشهرة فى ملبس والبس من الاثواب أسماها

تواضع الانسان فى نفسه أشرف للنفس وأسمى لها
ومن قصيدة لابن قلاقس :
الفكر فى الرزق كيف يأتى شئ به تتعب القلوب
فجانب الناس وادع من لا تكشف الا به الخطوب
وهذه مقطوعة لأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت يقول فيها :
ما أغفل المرء وألهاه يعصى ولا يذكر مولاه
يأمره بالفى شيطانه والعقل لو يرشد ينهاه
غرته دنياه فلم يستفق من سكرها يوما لأخراه
ياويحه المسكين .. ياويحه ان لم يكن يرحمه الله
وللامام أبى بكر الطرطوشى :
اعمل لمعادك يا رجل فالناس لدنياهم عملوا
واذخر لمسيرك زاد تقى فالقوم بلا زاد رحلوا
ويقول الامام الحافظ السلفى (١) فى تمجيد علم الحديث :
ان علم الحديث علم رجال تركوا الابتداع للاتباع
فاذا الليل جنهم كتبوه واذا أصبحوا غدوا للسمع
ولظافر الحداد فى الدعوة الى الزهد :
اذا اذنت لك الدول تذكر كيف تنتقل
فلو سمحت بها الأيا م لم يسمح بها الأجل
هذا الى نماذج أخرى نلتقى بها ضمن الاشعار التى استشهدنا بها
فى هذا البحث ..

- ١٦ -

وكان من الطبيعى أن يساير شعراء الاسكندرية ، فى هذه الفترة
من الزمن ، الركب العام فيمدحون الحكام ومن دونهم ، فاذا طالعنا صورا
من مدائحهم وجدناها وقد غلبت عليها السمة التى طغت على قصائد المدح

(١) توفى الحافظ السلفى سنة ٥٧٦ هـ عن مائة سنة وست ومن مؤلفاته بالنسبة الى
الاسكندرية كتاب معجم السفر الذى روى فيه لمجموعة من الذين أقاموا بالاسكندرية
أو مروا بها ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

القاهرة ، تلك هى المبالغة والاغراق فى تمجيد الممدوح والارتفاع به الى ما لا يرتفع اليه سائر البشر وقد وفدت بذور هذا الاتجاه من المغرب مع الدعوة الفاطمية التى كان شاعرها (١) يمدح خليفته بمثل قوله :

ما شئت لا ما شاعت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

والفاطيون كما نعلم قسم من الشيعة ، والشيعة يقدسون الأئمة من آل البيت ويرون فيهم من العصمة والطهر ما لا يرون فى سائر الناس بل ويرتفع بهم بعضهم - والفاطيون منهم - الى ما فوق درجة الملائكة فيخاطب أحد شعرائهم حامل مظلة الخليفة بقوله :

أمديرها من حيث دار لشد ما زاحمت تحت ركابه جبريلا

وربما كان مرجع هذا الى أن بعض الشيعة - والفاطيون منهم - كانوا يعتقدون أن الله يعز الامام اعدادا خاصا قبل بدء ظهور الخليفة ، حتى اذا جاء دوره فى الحياة البشرية وأوتى الخلافة تلقى علمه عن طريق الوحي الالهى وهم يعتقدون كذلك أن للقرآن ظاهرا وباطنا . أما ظاهره فهو ما يعلمه الناس وأما باطنه فقد اختص الله به الأئمة (٢) الى غير ذلك من معتقدات أخرى لا نرى هنا مجالا لعرضها ونكتفى هنا فى تقديس الأئمة والغلو فى مدحهم بأبيات لشاعر لم نعرفه الا لقبه « الاسكندراني » يمدح فيها العزيز بالله وقد ولى الخلافة بعد أبيه المعز :

أمـدح رهطـا غير رهط محمد	وفى الجيد عهد للامام وموثق
ولا فضل لي في ذل ، بل الفضل فضل من	بهم يحرم الله الأنام ويرزق
أئمة دين الله مذ قام دينه	وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق
محبتهم فرض على الناس واجب	وعصيانهم كفر الى النار موبق
ولولا هم لم يخلق الله خلقه	ولم يك فى الدنيا ضياء ورونق
لئن فقد الناس المعز لدينه	لقد قام بالدنيا العزيز الموفق

وهذه الأبيات من قصيدة أسماها صاحبها « ذات الدوحة » وهى مرسومة بالكتابة على شكل شجرة ذات فروع اشارة الى قول منسوب للنبي الكريم « أهل بيتى شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » (٣) .

(١) الشاعر ابن هانئ الاندلسي ، وقد توفي قبل أن يصل الفاطميون الى الاسكندرية ويلقب بمتنبى الغرب .

(٢) يشارك بعض الصوفيون الشيعة هذا الاتجاه نحو القرآن ويضيفون الى آل بيت النبي « من اصطفى الله سبحانه من عباده الاولياء » .

(٣) القصيدة كاملة فى كتاب « أدب مصر الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين .

فإذا انتقلنا الى مدائح الافراد ممن هم دون الأئمة وجدنا أثرا لهذه
المبالغة في قصائد هذا العهد والتي نكتفى منها بالالوان التالية :

فمن قصيدة لابن مكنسة يمدح بها الأفضل :

ملك بكفيه وأسيافه تقسم آجال وأرزاق
ذلت لنعباك نفوس كما ذلت لأسيافك أعناق

ومن أخرى لابن الكاتب ويبدو فيها اهتمامه بالبديع الذى كان
سمة العصر ، وقد حاول الشاعر هنا تجنبس الكثير من الكلمات :

أجل أنت من كل ملك أجل وفى راحتك المنى والأجل
فلا الباب عن مرتج مرتج ولا الوفر عن معتز معتزل

على أن الاسكندرية مع ذلك لم تخل من شعراء حاربوا الملق فى
هذه العهود حيث نسمع لابن جبير مثلا هذه الابيات :

من الله فاسأل كل أمر تريده فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة فقد قيل عنها انها السجدة الصغرى

- ١٧ -

ولم تبعد الاسكندرية الشاعرة فى هذا العصر كثيرا عن مساييرة
التيار القومى ، و لا عن القيام بواجبها فى تعبئة القوى الروحية والمعنوية
ضد طوفان الاستعمار الصليبي الذى بدأ يكتسح سهول الشرق الخصيبة
ويغمر الارض من دماء بنيها ، هؤلاء الذين أقاموا من أجسادهم أسوارا
ترد هذه الجموع المسعورة عن أراضيهم المقدسة . فمع قيام الجنود
والوطنيين بالواجب العملى فى الدفاع العسكرى عن المدينة وتأييدهم
للقائد صلاح الدين الايوبى (قبل أن يصبح سلطانا) وصمودهم معه فى
أثناء الحصار الصليبي للمدينة الذى دام بضعة أشهر من سنة ٥٦٤ هـ
ومع قيامهم مرة أخرى بالقضاء على الاسطول الصقلي الذى هاجم المدينة
سنة ٥٦٩ هـ ، مع هذا الكفاح فى الميدان العسكرى كان الشعراء فى
الميدان الادبى يتغنون بالنصر الذى يحزره قواد الوطن خارج الاسكندرية
مادحين بسالة الجيوش الاسلامية شامتين فى أعدائهم كلما حلت بهم احدى
الهزائم ، ونكتفى هنا بمقطوعتين لشاعرين أحدهما من أهل المدينة وثانيهما
من الوافدين اليها ، فى القصيدة الاولى يتحدث ظافر الحداد عن احدى

هذه الهزائم التي منى بها الصليبيون وعن مقتل أحد قواد هذه الحملة وذلك ضمن مدحته للوزير طلائع بن رزيك ذلك حيث يقول :

عن سيف دين الله سل ارناطا	حيث المنية كأسها يتعاطي
والمشرفية قد حكمت في جيشه	في العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا	أشقى وعائين مخلبا عطاطا
هو ملبس حيث العدا في الحرب من	حلل النجيع مجاسدا ورباطا
فجياده تشكو مزاحمة القنا	وترد خرصان الرماح سياتا
هو فارس الاسلام يحفظ بالطبا	من دينه الأطراف والأرساطا
كم قد أثار من الأسنة أنجما	لما أثار من العجاس عطاطا
فتخاله ملكا رمى بشهابه	في الروع شيطان الحروب نشاطا

وأما المقطوعة الثانية فمن قصيدة لابن جبير يهنئ بها السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما استرد بيت المقدس ويصف فيها كفاحه وقوة جيشه وزهده فيما ينعم به غيره من الملوك :

أطلت على أنفك الزاهر	سعود من الفلك الدائر
فأبشر فان رقاب العدا	تمد الى سيفك البائر
جنودك بالرعب منصورة	فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غارق هالك	بتيار عسكرك الزاهر
ثارت لدين الهدى في العدا	فأثرك الله من نائر
وقمت بنصر اله الوري	فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا	فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم	وترفل في الزرد السابري

ثم يتحدث عن استرداد صلاح الدين لبيت المقدس فيخاطبه بقوله :

فتحت المقدس من أرضه	فعادت الى وضعها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى	فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى	وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذكر الله هدى الفتو	ح من الزمن الأول الغابر

- ١٨ -

بقى أن نقرأ نماذج من شعر الاندلسيين من الذين أقاموا بالاسكندرية أو وفدوا إليها لمدة طويلة ، ونحن نعلم أن الجالية الاندلسية بالمدينة كانت تكون قطاعا هاما من سكانها ، وقد كان لهذا القطاع أكبر الأثر في المجال الشعري ، كما كان لأدبائه وعلمائه مقام الريادة في كثير من ألوان الثقافة بها ، ونستطيع أن نلمح في شعر شعرائهم حدة الشعور بالغربة فقد كانوا في الأغلب قريبي العهد بمفارقتهم أوطانهم ، ولا تزال المؤثرات العاطفية تربط بينهم وبين رفاق الصبا وأخذان الشباب في الاندلس برباط وثيق (١) .

ومن قصيدة لأبي بكر الطرطوشي (٢) تقرأ هذه الايات الحزينة :

أقلب طرفي في السماء ترددا	لعل أرى النجم الذي أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة	لعل بمن قد شم عرفتك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها	لعل نسيم الريح عنك يخبر
وأمشي ومالي في الطريق مارب	عسى نعمة باسم الحبيب ستذكر
والمح من ألقاه من غير حاجة	عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وله من قصيدة أخرى :

يقولون ثكلى ومن لم يدق	فراق الأحبة لم يشكل
لقد جرعتني ليالي الفراق	كثوسها أمر من الحنظل

ويقول أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت (٣) :

لا تسألني عن صنيع جفونها	يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت أملك خدها للثمته	حتى أعيد به الشقيق بنفسجا
أو كنت أهجع لاحتضنت خيالها	ومنعت ضوء الصبح أن يتبلجا
وبثت في الظلماء كحل جفونها	وعقدت هاتيك الذوائب بالدجي

(١) نجد وجوها عديدة للمقارنة بين أسباب حدة الشعور بالغربة في شعر الاندلسيين بالاسكندرية وحده هذا الشعور عند الشعراء العرب في المهاجر الامريكية .

(٢) توفي سنة ٥٢٠ هـ ودفن بمسجده بالسكة الجديدة بالاسكندرية ومن مؤلفاته كتاب «سراج الملوك» وقد طبع مرارا .

(٣) توفي سنة ٥٢٨ هـ وقد مكث بالاسكندرية عشرين عاما فيما يروي صاحب « نفع الطيب » (٤)

وهذه نماذج من شعر الغربة لابن جبير الاندلسي (١) :

طول اغتراب وبرح شوق لا صبر والله لى عليه
الىك أشكو الذى الاقى يا خير من يشتكى اليه
ولى « بغرناطة » حبيب قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو فى دلال يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق من دمه فوق صفحته
ومما يبعث الشجى قوله :

أقول وقد حان الوداع وأسلمت قلوب الى حكم الأسى ومدامع
أيارب أهلى فى يديك وديعة وما عدت صونا ليدك الودائع
وقوله :

غريب تذكر أوطانه فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرا صبره بالأسى ويعقد بالنجم أجفانه

وتحضره صلاة العيد فتثور بوجدانه الذكريات :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لى فى النوى جد بمدمع فليس لنا الا المدامع قربان

ويسمع ابن جبير وهو بالاسكندرية أن صديقه ابن الخطيب أبا
محمد عبد الله التميمي قد ولى قضاء « سبتة » وكان ابن جبير قد أقام
بها اقامة مانت فى أثنائها زوجته ، فتثير ولاية صديقه على قضائهما
الذكريات المطوية ولهذا بعث ابن جبير اليه ببيتين يذكر فيهما زوجته
ويود لقاء صديقه :

بسبتة لى سكن بالثرى وخل كريم اليها اتى
فلو أستطيع ركبت الهوا فزرت بها الحى والميتا

ومن قصيدة لأبى الحسن موسى بن سعيد :

رفيقى جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقا محياها

(١) ولد بالاندلس سنة ٥٤٠ هـ ووصل الى الاسكندرية في أول مرة سنة ٥٧٨ هـ وتوفي
بها سنة ٦١٤ هـ وقبره فيما يؤكد الكثيرون هو المعروف بسيدى جابر حيث مسجد
الكبير وقد قامت وزارة الاوقاف أخيرا باعادة بنائه .

وما أن تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنة سقيها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوما بليقياها

هذا وقد ترك الاندلسيون الذين غادروا الاسكندرية كذلك أعماق
الأثر في نفوس أبنائها وتمثل هنا بأبيات من قصيدة للشاعر ظافر
الحداد في وداع الشاعر أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت عند سفره
من الاسكندرية بعد اقامة طويلة بها :

وما طائر قص الزمان جناحه وأعدمه وكرا وأفقده الفا
تذكر رعبا بين أفنان بانه حوافي الخوافي ما يطرن به ضعفا
إذا التحف الظلماء ناجي همومه بترجيع نوح كاد من دقة يخفي
بأشوق منى مذ أطاعت بك النوى هوائية مائية تسبق الطرفا

- ١٩ -

ويبدو أثر التجارب التي استفاد بها موسى بن سعيد العنسي
الاندلسي في القصيدة التي نظمها بالاسكندرية في سنة ٦٣٠ هـ وفيها
ينصح ولده « عليا » (١) وكان قد وفد الى المدينة وهو في طريقه الى
القاهرة فاستبقاه حتى أتم نظمها وهي قصيدة طويلة مشهورة ومذكورة
بتمامها في الجزء الثالث من نفع الطيب وأولها :

أودعك الرحمن في غربتك مرتقبا رحماه في أوبتك
ويصف هذه القصيدة بأنها :

خلاصة العمر التي حنكت في ساعة زفت الى فطنتك
فلا تنم عن وعيها ساعة فانها عون الى يقظتك

ثم يأخذ في اسداء التوجيهات التي يراها صالحة لولده وهي توجيهات
سلوكية نافعة نختار منها هذه الابيات التي هي من وجهة نظرنا أكثر دلالة
على شخصية قائلها ومدى نظرتة الى أمور الحياة في المجتمع الذي يعيش
فيه :

وكل ما يفضي لعذر فلا تجعله في الغربة من اربتك
ولا تجادل أبدا حاسدا فانه أدعى الى هيبتك

(١) مؤلف كتاب « المغرب في اخبار المغرب » .

أفش التحيات الى أهلها
ولا تزل مجتمعا طالبا
ولا تكن تحقر ذا رتبة
وحيثما خيمت فاقصد الى
ولا تقل أسلم لي وحدتي
واقنع اذا لم تجد مطمعا
كم من صديق مظهر نصحه
اياك أن تقر به انه

ونبه الناس على ربتك
من دهرك الفرصة في ربتك
فانه أنفع في غربتك
صحة من رجوه في نصرتك
فقد تقاسى الذل في وحدتك
واطمع اذا أنقذت من عثرتك
وفكره وقف على عثرتك
عون مع الدهر على كربتك

وموسى بن سعيد كما هو واضح في هذه الابيات رجل عرك الدهر وتعلم من مجتمعه ووعى وجهات نظره وعرف قواعد السلوك الواجب على الغريب اتباعها في المجتمع الجديد عليه ، اذا أراد أن يضمن لنفسه فيه مركزا طيبا ، فهو يوصى ابنه ألا يجادل حساده ، فان المجادلة مع الحاسد الذى لا يقر له بالفضل ستجعله ينقب عن عيوبه بل ويجسمها ثم هو لا يراعى أدب الخطاب معه ، ومن هنا ستهبط قيمة الصورة التى رسمها فى أعين الناس . وهو يريه كيف يفشى التحية بين الناس بالشكل الذى يحفظ عليه وقاره ويضمن له استمرار محبتهم ، ثم ينصحه أن يحترم الرؤساء وأن يتقرب اليهم ويتخذ منهم عضدا وسندا يتكىء عليه ، فانه اذا ما أحيط برعاية الكبار كان خليقا - من باب أولى - بأن ينال احترام الصغار (١) ثم يريه كيف لا يكون انطوائيا فان انطواء الغريب يدعو الناس لاهماله، وهو انما يبنى مجده على المخالطة، ثم هو يوصيه بالقناعة، ولكن متى؟! ان القناعة التى يوصيه بها يجب أن تكون عندما لا يجد هناك مطمعا يمكن أن يطمع فيه ! وأخيرا لا ينسى أن ينصحه باتقاء مكر الاصدقاء وحسد هم فان من كانت هذه وسائله فى الظهور على مسرح مجتمعه لا بد وأن يوجد حوله من يتلبس له الخطأ الذى يفقده النعمة التى يمكن أن يكون قد نالها ...

ويمكن أن نقول ان هذه القصيدة تمثل القواعد المثلى للسلوك من وجهة نظر الغريب الذى يحاول اقامة كيان مرموق له فى أرض الغرب . ولعلها نفس القواعد التى كان الاجانب فى مصر والبلاد الشرقية يتبعونها الى عهد قريب .

(١) هناك وجه للمقارنة بين هذه الفقرة من نصائح القصيدة ومقدمة المقامة السكندرية للحريزى (٢)

- ٢٠ -

ولقد وددت أن أقصر هذا القسم من البحث على شعر الاسكندرية في العصر الفاطمي دون المساس بالعصر الأيوبي ولكنني وجدت العصرين وقد تداخلا تداخلا شديدا حتى لقد أوشكا أن يكونا عصرا واحدا ٠٠

والحق انه لم يكن ميسورا أن أقف على حافة العصر الفاطمي فلا أتعده ، ذلك لأن كثيرا من الشعراء عاشوا في العصرين معا ، وأن من العسير علينا أن نعرف التاريخ الصحيح الذي نظم فيه الشعراء قصائدهم اللهم الا بعض أشعار المناسبات ، وما أقلها في الشعر السكندري ، ولهذا اعتبرنا العصر الأيوبي في كثير من حالاته امتدادا للعصر الفاطمي ٠٠

صحيح أن هناك فارقا عقائديا هاما بين العصرين ولكنه لم يؤثر تأثيرا جذريا على سكان الاسكندرية ولا على الكثرة الغالبة من شعرائها ، فان كثرة الوافدين اليها من العلماء السنيين في العصر الفاطمي ميعت حدة انتشار المذهب الشيعي فيها ، فلم يؤثر التأثير الكافي في تلوين عقيدة أهلها ، وقد عني الفاطميون في بعض اتجاهاتهم بالحرية الفكرية فساعد هذا على بقاء المذهب السني بالمدينة ، ولم يبد من أثر الاتجاه الشيعي غير ملامح الحب الشديد لآل البيت النبوي الكريم والشجي الحزين لمأساتهم ، وهذه ظاهرة لها جذور في أعماق المصريين الذين هم عاطفيون بطبيعتهم وهي تتفق أيضا مع المذاهب الصوفية التي أخذت في الانتشار على نطاق واسع والتي ينتسب شيوخها أو يحاولون في الغالب الانتساب الى آل البيت حتى يمكن أن يتم لهم التأثير الروحي على أتباعهم ٠٠

وقد كان بعد الاسكندرية عن مقر الحكم وعن الارتباط المباشر بسلطة الحاكم من الأسباب التي ساعدت على انشاء كثير من المدارس الدينية ذات الطابع السني من مثل مدرسة الطاهر بن عوف (١) والحافظ بن السلفي (٢) ٠

كذلك لم يكن ميسورا أن أقف على الحافة المكانية لمدينة الاسكندرية فلا أتعدها في اختيار للنماذج الشعرية السكندرية ، ذلك لتنقل كثيرا من شعرائها داخل الاقليم المصري وخارجه في زمن لم تكن للحدود بين الشعوب العربية فيه قيمة ٠ ولهذا وجدت موقفي ازاء هذه المشكلة عسيرا ،

(١) بناها الوزير وضوان بن الحسن سنة ٥٢٢ هـ ٠

(٢) بناها الوزير على بن السلاد سنة ٥٤٤ هـ ٨١

ولكنى حاولت تيسيره بشتى الوسائل فبذلت كل ما أملك من طاقة حتى اخترت ما اثبتته من نماذج ، مستعينا على ذلك بالشواهد التي في الكتب الادبية والتي تساعد على صحة نسبتها الى المدينة غير مبرىء نفسى من القصور في هذا المجال الدقيق ..

ولكى تكمل الصورة التي حاولنا رسمها للاسكندرية من شعر أبنائها في هذه الفترة نورد هنا ثلاث تراجم لثلاثة من شعرائها يمثلون - فيما أرى - الاتجاهات المختلفة في شعر المدينة ، كما يمكن القول بأنهم يمثلون الى حد ما طبقاتها الاجتماعية ..

أما الأول فهو شاعر ينتمى بالتبعية والمعاشرة الى طبقة الاعيان وان كان هو نفسه لا يملك من شيء ، ويمثل شعره مزاجا خاصا يعتمد على ذوق مرهف وأناقة فكرية - رغم تبذله أحيانا - وعلى ثقافة أدبية واسعة يبدو أثرها في شعره ذلك هو الشاعر اسماعيل بن مكنسة ..

وأما الثاني فهو شاعر من عامة الشعب كان من العمال فهو حداد اشتغل بالأدب فأوصله هذا الى مجالسة الرؤساء والكبار ، وروى له الكثير من العلماء منهم العالم الجليل الحافظ السلفي الذي كان يلقب بمسند الدنيا في عصره .. ذلكم هو الشاعر ظافر الحداد ..

وأما الثالث فشاعر من طبقة العلماء الذين نالوا حظا من الثقافة الدينية التي يبدو أثرها في شعره واضحا ، ذلك هو الشاعر أبو الفتح نصر ابن قلاقس .

وقد سبق لنا أن استعرضنا في هذا البحث كثيرا من النماذج الشعرية لهؤلاء الشعراء واستشهدنا بمقطوعاتهم في كثير من الموضوعات، على أننا لن نكرر في تراجمهم هذه النماذج مرة أخرى ...

ابن مكنسة



- ٢١ -

عاش أبو الطاهر اسماعيل بن مكنسة بالاسكندرية فى زمن ولاية
أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعا الى أحد الرؤساء من النصارى ويعرف بأبى
مليح ، ونظم فيه أغلب مدائحه ، فلما مات رثاه بعدة قصائد جيدة منها
قصيدته التى نختار منها :

ماذا أرجى فى حياتى بعد موت أبى مليح

ما كان بالنكس الدنىء من الرجال ولا الشحيح

طويت سماء المكرمات وكورت شمس المديح

فغضب منه الأفضل وكان قد ولى الأمر بعد أبيه ولم يقبل منه
مدائحه التى حاول أن يترضاها بها والثى منها :

مثلى بمصر وأنت ملك يقال ذا شاعر فقير

عطاؤك الشمس ليس يخفى وانما حظى الضير

وقال له ماذا جاء بك وقد انقطع رجاؤك بموت أبى مليح ؟

فلما ساءت حالته تكفل به عز الدولة بن فائق أحد أمراء الاجناد
وكانت بينهما مودة سابقة وقام بأمره الى أن مات . . .

وقد ترجم له العماد الاصفهاني فى الخريدة وأمية بن عبد العزيز
ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية .

وشعر أبى الطاهر بن مكنسة يمتاز بعمق المعنى ومحاولة ابتكار
الفكرة غير المطروقة ، وصياغة المعانى القديمة صياغة جديدة وليست
المقطوعة عنده مجرد خاطرة تنظم وانما هى عمل فنى مرسوم بعناية .

وقد سبق لنا أن استشهدنا بالكثير من شعره ونحاول هنا أن نأتى
بنماذج أخرى قد تعين فى الوصول الى تقدير شاعريته ، فمن شعره قصيدة
يصف فيها رمدا كان قد أصابه ويشكو الطبيب الذى يعالجه ، ومن هذه
القصيدة قوله :

وما لنهارى كأنه الغسق
وما لعيني أرى بها عجا
ولى طبيب تشكو مراوده
شيفاه (١) تطرد الشفاء اذا
وان تصادى على زرتكم
وقائداى العصى والحلق
وما ليلى ما شقه الفلق
تفرق فى مائها وتحترق
وتستغيث ، الجفون والحلق
مر بعيني وكحله الأرق

ومن قصيدة يهجو فيها جماعة اخوة ويستثنى واحدا منهم بالمدح :

هم خبث الحديد وأنت مما
وان أورى زنادكم شرارا
وان جمعت أنا بيبا قناة
يصفى جوهر السيف اليماني
فبين النار بون والدخان
فأين الكعب من رأس السنان!

ومن قصيدة يعتذر فيها لعز الدولة عن الاشتراك فى إحدى الحملات العسكرية :

قل لمولاي اذ دعاني لأمر
ضعفت حيلتي وقل غنائى
وكأنى على بعير ترانى
حيث لا يتقى لسانى ولا يث
ان رأى اذا يسدد نحوى
فاذا ما قتلت كنت خليقا
فأقلنى عشارها وابق للمجد
قمت فيه له مقام العبيد
ودنت غايتي ورث جديدي
آخر الناس فى لفيف الحشود
بنى عنان المغير عنى نشيدي
سهم رام لغير رأى سديد
بدخولى جهنما وخلودي
وكبت العدا وغيظ الحسود

وشعره الغزلى حافل بالمعاني المبتكرة الجميلة ومن هذا الشعر قوله:

وأغيد ما لوجنته وفيه
سقى فأدار من عينيه أخرى
ولا ما فى زجاجته نظير
لأمر ما تنوعت الحمور

وقوله من قصيدة :

ما باله يجفو وقد زعم الورى
لا تخدعك وجنة محمرة
وزعمت أنى لست من أهل الهوى
والله ما أبصرت يوما أبيضاً
ان الندى يختص بالوجه الندى
رقت ففى الياقوت طبع الجلمد
صبا فقل ما شئت ٠٠ وتقلد
منذ ابتليت بحب طرف أسود

(١) الشيف : خامات العلاج -

وكذلك قوله :

كم ليلة نادمت في ظلماتها بدرا وشمس الكأس مطلع زنده
مشمولة ياليت رقة طبعها في قلبه وصفاءها في وده
فكانها من ريقه ، وحبايبها من ثغره ، وشعاعها من خده

هذا وتقف أمامنا قلة ما ورد عن ابن مكنسة في المراجع التي تحت أيدينا ، عن الوفاء بما يستحقه من عناية في إيجاد ترجمة تتناول جوانب حياته وما غمض منها بالايضاح فانه مع ماله من شعور رائع لم ينل ما يستحقه من عناية الباحثين ولذلك نرى أغلب تراجمه في كتب الأدب عبارة عن اختيارات لفقرات من شعره تنتهي بتاريخ وفاته ، ولم يتوسع في الترجمة له نسبيا - فيما أعلمه - الا العماد الاصفهاني حيث نقل - فيما أعتقد - عن الرسالة المصرية لأبى الصلت ، قصة نوايسيات ابن مكنسة ، اذ هما ينقلان في كتابيهما وفي أسلوب متشابه بعض الحوادث الدالة على ذلك ، ويقولان انه كان على صلة بعز الدولة بن فائق ثم يستشهدان بطائفة من شعره الذي تغزل فيه بالمذكر ..

وقد يكون هذا صحيحا وقد لا نجد فيما نقرأ له من غزل غير هذا الاتجاه ، الا أننا نحب أن نضيف الى هذا أن ذلك اللون من الغزل كان السمة الغالبة على شعر الحب في عصره حتى ولو لم يكن أصحابه من النوايسيين .

ومع ذلك فاننا نورد هنا بعض النماذج الأخرى التي يمكن أن يرى فيها من يسائر العماد وأميه فيما يرويانه ، دليلا على صحة ما أثبتاه عنه . فمن ذلك قوله يصف غلاما في ثوب أزرق :

مر بنا في ثوبه الأزرق كبد تم لاح في المشرق
لا براك الرحمن فيمن رأى حسن عذاريه ولم يعشق
وقوله في غلام مريض :

وقالوا براه السقم فاعتل جسمه عساه يرى في الصبر عن حبه عذرا
اذا كنت أهوى خصره لنحوه أسئلوه لما صار أجمعه .. خصرا ؟

وقوله :

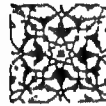
لم أر قبل شعره ووجهه ليلا على ضحوة الصباح عستسا
والسكر في وجنته وطرفه يفتح وردا أو يفض نرجسا

وقوله من قصيدة أخرى :

وَعَسْكَرِيَّ أَبْدَا حَيْثَمَا	تَلْقَاهُ يَلْقَاكَ بِكُلِّ السَّلَاحِ
حَاجِبُهُ قَوْسٌ وَأَجْفَانُهُ	نَبْلٌ وَعُطْفَاهُ تَشْنِي الرَّمَا حِ
فِي لَحْظِهِ سَحَرٌ وَفِي خَدِهِ	وَرْدَةٌ وَفِي فَيْحِهِ أَقْصَاحُ وَرَاحِ
رَاحٌ . وَفَعَلَ الرَّاحُ فِيهِ كَمَا	يَفْعَلُ بِالْفَصْنِ نَسِيمُ الرِّيحِ
شَقَقْتُ ثَوْبَ الصَّبْرِ مِنْ بَعْدِهِ	فَلْيَعْدِلِ الْعَاذِلُ وَلْيَلِجْ لَاحٌ ٠٠

هذا وقد توفي أبو الطاهر اسماعيل بن مكنسة سنة ٥١٠ هـ .

ظافر الحداد



- ٢٢ -

نشأ ظافر الحداد بالاسكندرية نشأة شعبية وتذوق الادب واشتغل
 بنظم الشعر فقربه هذا الى مجالس كبار العلماء في عهده وقد استفاد
 كثيرا من صحبته للشاعر الأندلسي الكبير أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت
 الذي مكث بالاسكندرية مدة طويلة أوجد خلالها حوله جوا أدبيا خلّقا .
 حتى اذا عاد أمية الى بلاده بقيت علاقات الود قائمة بينه وبين الكثيرين من
 أبناء المدينة وشعرائها ومنهم ظافر الحداد الذي نلمح في قصائده التي
 بعث بها اليه آثارا رائعة لهذه الصداقة التي أثمرت أدبا ممتازا نشعر
 من خلاله بمدى استفادة ظافر من هذه الصداقة الطيبة وقد قدمنا فيما
 سبق من صفحات هذا البحث أبياتا يودعه فيها . وفيما يلي أجزاء من
 قصيدة أخرى بعث بها من الاسكندرية اليه حيث أقام في المهديّة وقد
 سلف أن استشهدنا بجزء آخر منها :

ألا هل لدائي من فراقك افراق
 هو السم لكن في لقائك ترياق
 فيا شمس فضل غربت ولضوئها
 على كل قطر بالمشارك اشراق
 لك الخلق الجزل الرفيع طرازه
 وأكثر أخلاق الخليفة أخلاق
 لقد ضاءتني يا أبا الصلت مذ نأت
 ديارك عن داري هموم وأشواق
 اذا عزني اطفأؤها بمدامعي
 جرت ولها ما بين جفني احراق
 أخي سيدي مولاي دعوة من صفا
 وليس له من رق ودك اعتناق
 لئن أبعدت ما بيننا شقة النوى
 ومطرده طامي الغوارب خفاق
 فعندي لك الود الملازم مثلبا
 تلازم أعناق الحائم أطواق

ثم يتحسر على الليالي الممتعة التي كانا يقضيانها بالاسكندرية
يتناشدان فيها الأشعار ، يسبحان في أجواء من الأدب الأصيل •

ألا هل لأيامي بك الغر عودة ؟
كعهدى وثغر الثغر أشنب براق (١)
لئن قصرت كتبي فلا غرو أنه
لعائق عذر والمقادير أوهاق (٢)
كتبت وآفات البحار تردها
فان لم يكن رد على فاغراق
بحار بأحكام الرياح فانها
مفاتيح في أبوابهن واغلاق
ومن لي أن أحظى اليك بنظرة
فيسكن مقلق ويرقأ مهراق

ويدل الشعر القليل الذي وصلنا عن ظافر انه كان من أقوى شعراء
الاسكندرية في ذلك العصر الهاما ومن أبرعهم شاعرية استمع اليه وهو
يكاد يذوب رقة في قوله :

رحلوا فلولاً أننى أرجو الاياب قضيت نحبي
والله ما فارقتهم لكننى فارقت .. قلبى
أوفى قوله :

يذم المحبون الرقيب وليت لى من الوصل ما يخشى عليه رقيب
وهو يتظرف في تهينة قاضى الاسكندرية بحلول شهر الصوم
فيقول عن رمضان انه :

ما سار حولا كاملا الا ليسرق منك معنى

وقد كان ظافر هذا - كما أسلفنا - حدادا ، يصوغ الحديد كما
يصوغ القول ويؤلف منهما ما يروق العين أو يروق السمع ، استمع معى
الى هذين البيتين اللذين قالهما على لسان كرسى حديدى من صناعته :

انظر بعينك فى بديع صنائى وعجيب تركيبى وحكمة صانعى
فكأننى كفا محب شبكت يوم الفراق أصصايعا بأصابع
وربما أخذ من أسماعنا ، ونال من اعجابنا ما يبدو من أثر لمهنته فى

(١ ، ٢) ما بين الرقطين = الأبيات الواردة لظافر فى توديع أمية •

صياغته لشعره ، فان أثر المهنة واضح في الأبيات التالية وقد أبرزنا الكلمات أو المعاني المستمدة من هذه الصناعة :

كان نجوم الليل لما تبلجت توقد جمر في خلال رماد

هلل فان هلال العيد عاد بما قد كنت تعهد من لهو ومن طرب
كحلقة من لجين ذاب أكثرها لما تفاقل ملقيها عن اللهب

وعشية أهدت لعينك منظرا جاد السرور به لقبلك وافدا
روض كمخضر العذار وجسول نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحسان تزينت ولبسن من أثمارهن قلائدا

ما خلت أن النار في وجناته حتى بدا في عارضيه دخان

لولا ليال لنا بالبان سالفه كررت من زفراتي فيه فاحترقا

ومن شعره الرقيق الجياش بالعاطفة قوله :

عتبت ولكنني لا أعي وأين ملامك من مسمعي
وما قدر عتبك حتى يزيل غرا ما تمكن من أضلعي
وما دام لومك الا وأنت تقدر ر أن جناني معي
مضى كي يودع مكانه غداة الفراق فلم يرجع

ومن قصيدة أخرى تجمع بين البساطة والرقّة قوله :

لا فرق بينكم وبين فؤادي في حال قربي منكم وبعمادي
فلقد حببتكم على علائكم كمحبة الآباء .. للأولاد
ونزلتموني وان لم تنصقوا بمنازل الأرواح في الأجساد
ورجوت سلوانا بسوء صنيعكم عندي فصار ذريعة لودادي
قد كنت اقنع بالخيال لو انكم لم ترحلوا يوم النوى برقادي
ومن أبيات له يتحسر فيها على الشباب :

أسفى على ورد الشباب الزائل أسفا يطول عليه عض أنامل
ولى فلا طمع لعطفة هاجر منه ولا أمل لأوبة راحل
ولقد أسلفنا الكثير من شعره في الاستشهادات العديدة الماضية
كما أوردنا قصته مع السعيد بن ظافر حاكم الاسكندرية والتي تدل على
سرعة بديهته وقدرته على ارتجال النظم .
هذا وتوفي ظافر الحداد سنة ٥٢٩ هـ .

این قلافس



- ٢٣ -

نشأ ابن قلاقس أبو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمي السكندري
نشأة علمية دينية وأخذ عن علماء الاسكندرية المشهورة يومئذ بمدارسها
الدينية ثم عين في احدى الوظائف الرسمية واتصل بالحكام والوزراء
يمدحهم .

ولقد كان كثير الرحلات والاسفار ، نرى ظلالة من هذا الاتجاه
في ديوان شعره الذي يمثل اتجاهاته المختلفة .

زار صقلية بعد أن انتزعها النورمانديون من أيدي العرب ونظم فيها
شعرا منه هذان البيتان :

بلد اعارته الحمامة طوقها وكساء حلة ريشه الطاووس
فكانما الأنوار فيه سلافة وكان سباحات الديار كئوس

كما زار اليمن وكثيرا من البلاد العربية ليرضى في نفسه نزعة
التجوال والتنقل في البلاد ، ومن شعره الذي يدل على هذه النزعة قوله
في مطلع قصيدة :

سافر اذا ما شئت قدرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى طيبا ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدرر النقية بدلت بالبحر .. نحرا

فاذا ما تناولنا نماذج أخرى من شعره لنستشف منها بعض ملامحه
طالعنا هذه الأبيات :

قم هات جامك شمسا عند مصطبج
وخل كأسك نجما عند مغتبق
هب النسيم وهب الصبح فاشتركا
في نكهة من نسيم الروضة العبق
وبت بالكأس أغنى الناس كلهم
فالخمر من عسجد والكأس من ورق
حبابها وأحاديثي ومبسمه
ثلاثة كلها من لؤلؤ نسق

وأجار عندئذ فأسأل نفسي ، أيمكن أن يكون هذا الشعر صدى
لحياة ابن قلاقس فعلا ؟

أم أنه من باب ترويض القول الذى يلجأ اليه بعض الشعراء أحيانا
راسمين بأخيلتهم أشكالا لما حرموا منه فى واقعهم ؟

وكدت أقول بالإيجاب عن هذا السؤال الأخير ، فالرجل فيما يروى
عنه ذو ثقافة دينية أظنها من انطلاقه ، لولا ان هناك نماذج أخرى من
شعره - عرضنا بعضها فيما سبق - تصف لنا ألوانا من هذا اللهو
فيها حيوية التجربة وحرارة الواقع ، ترجع الرأى القائل ، ان الموصوفات
التي تناولها الشاعر ترتبط بالكثير من حقائق حياته .

وحتى اذا لم يكن هذا الرأى صحيحا فان الذى لا شك فيه ان
مجتمع شاعرنا لم تكن تنقصه هذه الألوان وان هذا الشعر كان صدى
منظوما لها .

بقى ان نتتبع بعض الصور والتعبيرات التي غلبته نشأته العلمية
والفقهية على اصطناعها ، فسرت فيها بعض كلمات وتعابير صدرت من
ينابيع ثقافته وبيئته كهذه التي نجدها فى النماذج التالية :

رقيم خد نام عن ساهر ما أجدر النوم بأهل الرقيم



وكم قال للصبياء انى حالف فقالت له الصبياء انك حاثث
وما العيش الا للذى هو ما كث على غيه او للذى هو ناكث



أقلعت والبحر قد لانت شكائمه فعاد - لاعاد - ذا ريح مدمرة
كأنها أخت تلك الريح فى عاد وقد رأيت به الاشراف قائمة
ولا تلاوة الا ما نكره ونحن فى منزل يسرى بساكنه
فأسمع حديث مقيم بيته عاد أبيت ان بت منه فى مصورة
من ضيق لحد ومن اظلام الحاد لا يستقر لنا جنب بمضجعه
كان حالاتنا حالات عباد فكم يعفر خدا غير منعفر
وكم يخر جبين غير سجاد حتى كانا وكف النوو يقلقنا
دراهم قلبتها كف نقاد

فاننا نقرأ فى هذه المختارات كلمات أهل الرقيم وقوم عاد
واشراف الساعة ومبتدا النحل ومنتهى صاد والحث والنكت والاحاد
وحالات العباد الى غير ذلك .

كما يطالعنا الكثير من هذه الكلمات والتعبيرات في ديوانه وهذا كله مما يدخل في صناعة الفقه والجدل الديني أكثر مما يدخل في صناعة الشعر .

وشاعرنا جم الوفاء لشيخه ويطالعك في ديوانه بالكثير من مدائحه فيهم ، ومن شعره في شيخه الحافظ السلفي هذه الأبيات :

وجبين كشارق الشمس يهدى بسناه من أتلفته الطريق
شيم ما جرت على خاطر الدهر ولا حاز مثلها مخلوق
أيها الحافظ الذي حفظ الدين فما للهوى له تطريق
بك يستعذب الصيام ويهوى الفطر للناظرين والتشريق

ولقد كان أغلب إقامة شاعرنا بالإسكندرية ولهذا أجاد وصف السفن التي كان يراها غادية رائحة في مينائها الكبير ، وكذلك كان يشهدها وهي تصنع على شواطئ المدينة ، هذا فضلا عن تأثره بركوبها في رحلاته العديدة ومن جيد وصفه لها هذه الأبيات :

كل نون من المراكب فيها ألفات مصفوفة للصواري
تقسم الماء والهواء لساق وجناح من عائم طيار
وهي ضدان من جوانج ليل قد أقيمت ومن جناح نهار
صورة كالفيول لولا قلوب أبرزتها في صورة الاطيار
فاذا انتقلنا معه في زيارة للنيل وثناء شاعريته أن يصف لنا
غروب الشمس فانه يمتعنا بأمثال هذه الصورة الرائعة :

أنظر الى الشمس فوق النيل غاربة
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء في الفرق
وللهلال فهل وافى لينقدها
في اثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

على انه يلفت نظرنا بانسانيته العالية في قصصه الدالية التي استشهدنا بها قبل قليل ، ذلك اننا نجد فيها روح الأخوة التي ربطت بينه وبين رفاق السفينة على رغم اختلاف جنسياتهم ، كما اننا نحس احتراقه شوقا الى مدينته الجميلة - الاسكندرية - وإلى معالمها العديدة كالمنارة والباب القديم بل ونصل معه الى قمة الشعور بالمشاركة الانسانية عندما يكون هذا المعلم ، « كنيسة من كنائس النصارى » وشاعرنا كما نعرف مسلم وذو ثقافة اسلامية ...

يا اخوتي ولنا من ودنا نسب على تباين آباء وأجداد
متى تنور آفاق المنارة لي بكوكب في ظلام الليل وقاد
وأستمد من الباب القديم هوى عن الكنيسة فيه جل اسنادي
وقبل أن نختتم هذه الصورة الموجزة لشاعرنا القديم نجب أن نشير
الى قصيدته المشهورة والتي سبق لنا أن أشرنا اليها والتي مطلعها :
سافر اذا ما شئت قدرا سار الهلال فصار بدرا

فانها أوفر قصائده دلالة على نفسيته وتصويرا لحياته ونحن إذ
نجزىء منها الأبيات التالية انما نحاول بقدر الطاقة أن نستكمل الصورة
التي نريد رسمها للشاعر الشاب . . .

وصلا اذا امتلأت يدك فان هما خلتسا فهجرا
فالبدر أنفق نوره لما بدا ثم استسرا
مدت الى الأربعون يدا وقد قهقرت عشرا (١)
واستحدثت في لمتي نقطاً فهلا كن حبرا
ما قلت أف ٠٠ فانها شرر بأف ٠٠ يعود جبرا
وكفاك انى ان نظرت لها نظرت النجم ظهرا (٢)
كان الشباب الغض ليلا فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بى الزمان كما اشتهى بطنا وظهره
فبما قتلت صروفه وقتلته جلدا وصبرا
غاض الوفاء وفاض ما * الغدر أنهارا وغدرا
فانظر بعينك هل ترى عرفا وليس تراه نكرا ؟
خلق جرى من آدم فى نسله وهلم جرا
ونشهد فى البيتين التاليين من هذه المقطوعة سمة من سمات
السكندريين الباقية الى الآن ، وهى الجرأة والاستهانة بالصعاب ، ذلك
حيث يقول :

ومروى بالبحر يح سب اننى ارتاع بحرا
أو ما درى انى بتس هيل المصاعب منه أدرى ؟
هذا وقد توفى ابن قلاقس فى أثناء رحلة له « بعيناد » وهى بلدة
على شاطئ البحر الأحمر سنة ٥٦٧ هـ عن اثنين وثلاثين عاما تقريبا .
وله ديوان شعر بالمكتبة الأهلية ببازيس وله كذلك ديوان مختصر
نشره الشاعر خليل مطران بالاسكندرية منذ ستين سنة .

(١) أى أنه فى الثلاثين من عمره .

(٢) المثل البلدى يقول : « شاف النجوم فى الظهر » ويضرب فيمن قاسى الكثير .

المراجع الخاصة بالقسم الأول



١ - الكتب

- ١ - مصر والشرق الأدنى القديم .
- ٢ - معارك الاسكندرية .
- ٣ - الاوديسة .
- ٤ - معجم الأعلام في الأساطير اليونانية .
- ٥ - مصر البطلمية .
- ٦ - شعر الرعاة .
- ٧ - شعر الاسكندرية .
- ٨ - الاسكندر الأكبر .
- ٩ - البحر المتوسط .
- ١٠ - تاريخ الاسكندرية .
- ١١ - تاريخ الاسكندرية .
- تأليف الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل .
- تأليف الأستاذ الدكتور صديق شيبوب .
- تأليف هوميروس ترجمة الأستاذ أمين سلامة .
- تأليف الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحي طبعة أولى .
- ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجه .
- ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجه .
- تأليف الأستاذ عزيز خاكي .
- تأليف أمييل لودفيج ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .
- تأليف أساتذة قسم التاريخ بكلية آداب الاسكندرية .
- تأليف الدكتور السعيد عبد العزيز سالم .

- ١٢- صفحة من تاريخ القبط
تأليف مجموعة من الباحثين
باشراف الدكتور مراد كامل
- ١٣- البصير في خمسين سنة
تأليف مجموعة من الباحثين
باشراف جريدة البصير .
- ١٤- مصر من الاسكندر حتى
الفتح العربي .
ترجمة الاستاذين الدكتورين
محمد عواد حسين
وعبد اللطيف أحمد .
- ١٥- قصة الحضارة تأليف
ول ديورانت تر .
ترجمة الاستاذ محمد بدران
وأخريين .
- ١٦- تاريخ الأمة القبطية .
تأليف ل . بوتشر ترجمة
مجلة المقتطف .
- ١٧- موجز تاريخ القبط .
تأليف وليم ورل ترجمة باشراف
الدكتور مراد كامل .
- ١٨- فتح العرب لمصر .
تأليف بطر ترجمه الأستاذ
محمد فريد أبو حديد .
- ١٩- مصر والامبراطورية
الرومانية .
تأليف الدكتور عبد اللطيف
أحمد علي .
- ٢٠- فتوح مصر .
٢١- الخطط .
تأليف ابن عبد الحكم .
للمقريزي .
- ٢٢- مصر في عهد الولاة .
٢٣- الأدب في عهد الولاة .
٢٤- حسن المحاضرة .
٢٥- جامعة الاسكندرية .
- للدكتورة سيدة الكاشف .
للدكتور محمد كامل حسين .
للسيوطي .
للدكتور ابراهيم جمعة .

٢ - الصحف والمجلات :

- ١ - البصير عدد ٧ من أكتوبر ١٩٦١ مقال للأستاذ أندريه أندراوس .
 - ٢ - المجلد الخامس من مجلة كلية آداب الاسكندرية مقال للأستاذ الدكتور حسن عون .
 - ٣ - الحولية الخامسة لكلية آداب عين شمس مقال للأستاذ الدكتور محمد محمود السلاموني .
 - ٤ - مجلة كلية آداب الاسكندرية العدد ١٥ مقال للأستاذ الدكتور محمد محمود السلاموني .
 - ٥ - مقال للأستاذ صديق شيبوب عن تكوين جمهورية أندلسية بالاسكندرية .
- تفضل الأستاذان الفاضلان الدكتور حسن عون الأستاذ بجامعة الاسكندرية والدكتور محمد محمود السلاموني الأستاذ بجامعة عين شمس والمنتدب بجامعة الاسكندرية بإبداء بعض الملاحظات التي استفدت منها كثيرا فى كتابة هذا القسم من البحث .

المراجع الخاصة بالقسم الثاني

المراجع القديمة :

- ١ - جريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر (جزآن)
تأليف العماد الاصفهاني وتحقيق الأستاذ أحمد أمين وآخرين .
- ٢ - الرسالة المصرية لأمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت
بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
- ٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان .
- ٤ - فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی .
- ٥ - بدائع البدائنه لعلي بن ظافر .
- ٦ - معجم الأدباء (ارشاد الاريب في معرفة الأديب) لياقوت الرومي
نشرة محمد فريد رفاعي .
- ٧ - معجم البلدان لياقوت الحموي .
- ٨ - رحلة ابن جبير .
- ٩ - ديوان ابن قلاؤس نشر خليل مطران .
- ١٠ - مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري .
- ١١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي .
- ١٢ - مفرج الكروب في أخبار بن أيوب لابن واصل
نشر الدكتور جمال الدين الشيال .
- ١٣ - القصص الیانة فی محاسن المائة السابعة لموسی بن سعید
بتحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى .
- ١٤ - نفع الطيب في غصن الاندلس الرطب الاجزاء ٢ و ٣ و ٤
لابن المعري .

- ١٥- حسن المحاضرة للسيوطي *
- ١٦- البداية والنهاية لابن الاثير *
- ١٧- صبح الاعشى للقلقشندي *
- ١٨- الطالع السعيد لكمال الدين الاذفوي *
- ١٩- فتوح مصر لابن عبد الحكم *
- ٢٠- خطط المقرئ *

المراجع الجديدة :

- ١ - صفحة من تاريخ القبط باشراف الدكتور مراد كامل *
 - ٢ - فتح العرب لمصر تأليف الدكتور بتلرو ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد *
 - ٣ - الاسكندرية للدكتور السيد عبد العزيز سالم *
 - ٤ - معارك الاسكندرية للأستاذ صديق شيبوب *
 - ٥ - الحياة الأدبية في عهد الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوي *
 - ٦ - أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين *
 - ٧ - أدب الاسكندرية في العصرين الفاطمي والايوبي للأستاذ أحمد محمد النجار رسالة مخطوطة بكلية الآداب بالاسكندرية نال بها صاحبها جائزة واصف غالي *
 - ٨ - مصر في عهد الولاة للدكتورة سييدة الكاشف *
 - ٩ - الأدب في عهد الولاة للدكتور محمد كامل حسين *
 - ١٠- مقال للأستاذ حسن عبد الوهاب عن الاسكندرية في العصر الاسلامي *
- (عدد يناير ١٩٤٧ من مجلة الكتاب) *

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
القسم الأول :	
ملاحق قديمة	٧
شعر الاسكندرية فى العصر البطلمى	١٥
شعر الاسكندرية تحت مطرقتى روما وبيزنطة	٢٥
شعر الاسكندرية من الفتح العربى الى بداية العهد الفاطمى	٣٥
القسم الثانى :	
شعر الاسكندرية وملاحق من الحياة فيها فى العصرين الفاطمى والايوبى	٤٧
ابن مكنسة	٨١
ظافر الحداد	٨٧
ابن قلاقس	٩٣
المراجع	٩٩

البريد العامية للطباعة والنشر

